بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠

موسوعة البصرة الصغيرة

سلسلة ثقافيّة تتناول التراث البصري

تصدر عن مركز تراث البصرة التابع للعتبة العبّاسيّة المقدّسة

١

المكان والإنسان في المقامة البصريّة

د. عامر السعد

العتبة العبّاسيّة المقدّسة
قسم شؤون المعارف الإسلاميّة والإنسانيّة
مركز تراث البصرة
البصرة – بريهة
هاتف: ٠٧٨٠٠٨١٦٥٩٧ – ٠٧٧٢٢١٣٧٧٣٣
البريد الإلكتروني: basrah @ alkafeel.net

السعد، عامر عبد محسن، ١٩٥١–
المكان الإنسان في المقامة البصريّة / إعداد الدكتور عامر السعد.– الطبعة الاولى.
– البصرة [العراق] : العتبة العبّاسيّة المقدّسة، قسم شؤون المعارف الاسلاميّة والانسانيّة، مركز تراث البصرة، ١٤٣٧ هـ. = ٢٠١٥.
١٠٩ صفحة ؛ ١٢x٥ , ١٦ سم.– (موسوعة البصرة الصغيرة : سلسلة ثقافيّة تتناول التراث البصري ؛ ١)
المصادر : ص. ١٠١–١٠٧.
١.البصرة (العراق)––تاريخ. ٢. البصرة (العراق)––تراجم ––. الف. العنوان.
DS79.9.B3 S2 2015
الفهرسة والتصنيف في مكتبة العتبة العباسية المقدسة

–بطاقة الكتاب–

العنوان: موسوعة البصرة الصغيرة (المكان الإنسان في المقامة البصريّة)
الناشر: قسم شؤون المعارف الإسلاميّة والإنسانيّة في العتبة العبّاسيّة المقدّسة – مركز تراث البصرة.
إعداد: الدكتور عامر السعد
تصميم وإخراج: محمّد شهاب العليّ.
عدد النسخ: ١٠٠٠
الطبعة: الأولى – محرّم ١٤٣٧هـ – تشرين الثاني ٢٠١٥م.
حقوق النشر والتوزيع محفوظة على الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي علّم بالقلم، والصلاة على نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى أله الطاهرين، وصحبه المنتجبين.

وبعد:

ان قراءة النص بعيداً عن التاريخ قد لا تؤدي إلى الاحاطة بكل جوانبه، إذ لا بد من اقامة جسر للتواصل يتجاوز حدود التركيب والدلالة إلى ما يحيط به.

ان الظروف التي عاشتها البصرة وقت كتب الحريري مقاماته تعطي مسوغاً لولادة فن المقامة، ولا شك ان التعرف إلى تلك الظروف لا يدع حاجة إلى الاستعانة بمرايا مقعرة أو محدبة لا تُري النص على حقيقته.

لقد بدأ الانحدار والتدني يدّبان في كل مفاصل الحياة، فلم يرق للثقافة ان تغازل سلاطين الجور أو الامراء الذين لا همّ لهم سوى

أنفسهم، بل أدارت ظهرها لهم لتقف وجهاً لوجه امام الفقراء، فهولاء هم جمهور التلقي الذين كانوا يقفون دائماً أمام بطل المقامة ليتحدث لهم في كل مرة عما يروق له بلغة راقية، متأنقة يتعالق فيها الواقعي والمتخيل، ويتحاور فيها العقلي والعاطفي حتى ان المتلقي يرى نفسه أمام اديب متضلع، ولغوي متمكن،وفيلسوف متمرس،وعبقري متفنن، يعطيك معلومة ويترك أخرى ليدعك تربط بين الحاضر والغائب، بين المصرح به والمسكوت عنه، لهذا نرى ضرورة في ان تكون القراءة أداة استكشافية تستنطق السطور لكي تبوح بما يكمن فيها.

لقد حاولنا استنطاق النص في الاتجاهين: الافقي والعمودي مما ساعد في الاضاءة والكشف عما لا يمكن الوصول اليه في قراءة اخرى مختلفة، وكانت (المقامة البصرية) هي محطّ الدراسة في هذه الموسوعة الصغيرة، لأن الحريري قد خص مدينته على لسان بطله أبي زيد السروجي بعد ان فرغ من الكدّ والترحال وتوجيه الخطاب إلى أناس مختلفين في أماكن متعددة.

ان هذه المقامة التي هي آخر مقاماته (الخمسين) لم تكن الا بطاقة تعريفية – ترينا أن البصرة مدينة لها الكثير من المحامد والفضائل التي تجعلها متميزة بين المدن، فضلاً عن ان اهلها هم أهل ورع وتقوى وعلم أدب وفضل وفضائل.

لقد توجه الحريري في مقامته البصرية: إلى (المكان البصري) أولاً فذكر محامده ثم فعل الامر نفسه مع (الانسان البصري)، وما هذه الدراسة الا محاولة لتعريف القارئ بما تضمنته تلك المقامة في ضوء قراءة تحليلية، تناصت بعض الشيء مع حقول معرفية متنوعة من بينها: التاريخ والجغرافية واللغة والأدب رغبة في تجاوز الوظيفة الشارحة للنصّ إلى وظائف اخرى قد تكون الوظيفة التعليمية واحدة منها وهو ما تجلّى في ما تضمنته المقامات من حكم ومواعظ لها الاثر الاكبر في تهذيب النفوس، وبناء السلوك على أساس من القيم العالية.

وأخيراً لابُدّ من اسداء خالص الشكر والثناء للسيد الامين العام للعتبة العباسية المقدسة سماحة السيد أحمد الصافي (دامت بركاته)

على التفاتته الكريمة إلى أهمية التراث البصري والايعاز بفتح (مركز تراث البصرة) ليقوم بدوره في دراسة ذلك التراث واحيائه والتعريف به.

والشكر موصول للسيد مدير مركز تراث البصرة سماحة الشيخ شاكر المحمدي على رعايته لمشروع موسوعة البصرة الصغيرة التي ستتواصل متضمنة في كتبها اللاحقة موضوعات معرفية متنوعة.

ومن الله التوفيق.

د. عامر السعد

أولاً: المكان البصري

بين البصرة وساكنيها لغة مشتركة، لغة الشوارع المحفوفة بالنخيل...لغة الأنهار المكتظة بالزوارق والأشرعة...لغة المساجد النابضة بالحِجاج والمعرفة...لغة الطيبة الجاذبة والألفة الجامعة للناس من شتى المذاهب، ومن مختلف الملل...

هذا هو المكان البصري الذي قد يتماثل مع غيره من الأمكنة في جغرافيته وفي هندسته، لكنه يختلف عنها في تكوينه وانتماءاته، وفي عطائه وانجازاته، لذا فالحريري حين يصف البصرة يشعرك ان المكان قد أمده بروحه، وهمس له بأسراره التي لم يكن بمقدور غيره فهمها بالصورة التي استوعبها بها.

إن الحريري لم يكن ناسخاً الطبيعة البصرية في مقامته، وانّما حاول الإيحاء بها حتى كأنه يوقفنا أمام مدينة مرسومة لا منقولة، فتحسب ان هناك محاكاة مثل الذي نجده عند الفنانين، الذين عادة ما يوحون بالطبيعة ولا ينسخونها عند محاكاتها.

ربما يختلف الامر عند الحريري، فالمقامة وان كانت فناً أدبياً، فهي لا تمارس – في تقديم المدينة – التحوير أو التزوير، لأن البصرة في صورتها الطبيعية مدينة موحية تمتلك كلّ ما يجعلها جميلة فاتنة، لذا يكفي الحريري ان يقدم مدينته عبر التاريخ كما هي،ولا حاجة إلى اعادة تشكيلها على طريقة الفنانين الذين يستعملون ما يسمى عند علماء الجمال بـ(العقل الشعري)، وان كان الحريري ليس ببعيد عن ذلك العقل، لكن شعريته لا تكمن فيما يجريه على الطبيعة من تحويرات، وانما تكمن في صنعته اللغوية التي تعمل على تنصيب البصرة أميرة تستريح على عرش الكلمات.

ان أول الموحيات بأهمية المكان هو اتخاذه (البصرة) اسماً للمقامة، فهذا النصّ بأسلوبه المبدع، وببنائه السردي الجميل يندرج تحت عنوان (المقامة البصرية) والظاهر ان هناك تواشجاً ومقاربة بين المقامة والمكان تُشم من مدلول اللفظ، فالمقامة في الأصل اسم لموضع القيام، ثم سمي به المكان والمجلس، قال تعالى:

﴿ الذي احلّنا دارَ المقامةِ مِنْ فضلهِ ﴾ (سورة فاطر، ٣٥)

وجاء في لسان العرب:«والمقام والمقامة: المجلس. ومقامات الناس: مجالسهم (...) والمقامة والمقام: الموضع الذي تقوم فيه »[١]

ان التركيز على صيغة اسم المكان ومدلولاتها مؤشر إلى ان المكان قد حظي باهتمام الحريري وعنايته، والظاهر ان التآلف بين الامكنة وساكنيها يزداد قوة في ايام المحن، لأن الظروف الصعبة والاخطار المحدقة تحاول ان تباعد المسافة بين الانسان والمكان، وهي المسافة ذاتها بين الانسان وهويته وانتمائه.

ولو عدنا إلى البصرة في المدة التي عاش فيها الحريري مابين ولادته في سنة (٤٤٦هـ)، إلى وفاته في سنة (٥١٥هـ) نلاحظ ان الظروف التي عاشتها البصرة كانت متردية في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فمن الناحية السياسية كان الاستقرار مهدداً والامن متزعزعاً وكان الشعور بالتمزق والضياع هو الغالب بين الناس، فالسلطة المركزية بدأت تفقد مركزيتها، وكان هذا مؤشراً اكيداً إلى ضعف الخلافة العباسية

وقتذاك، وبسبب هذا الضعف ظهر التمرد هنا وهناك عند الامراء، ففي كل مدينة منبر ومتسلّط له خطاب خاص به.

لقد سيطر البويهيون على العراق لاسيما بغداد والبصرة واستمر حكمهم ثلاثة ارباع القرن.وفي اثناء حكمهم تعرضت البصرة إلى نكبات متتالية، ففي سنة ٣٧٦ هـ داهمها القرامطة، وفي سنة ٤١٩هـ هاجم جنود (ابي كاليجار) البويهي من أهل الديلم مدينة البصرة ونهبوا أسواقها، ثم تلاحقت المصائب والمحن على المدينة. (٢)

وقد بين ناصر خسرو تلك الحال عند زيارته البصرة في سنة ٤١٩هـ فأشار إلى انها كانت محاطة بسورٍ عظيمٍ لكنّ معظمها كان خرائب.(٣)

هذه الظروف المأساوية: التي عاشتها البصرة، وما رافقها من ضعف الحكام البويهيين لاسيما في العقد الاخير من حقبتهم، أدت إلى دخول السلاجقة في سنة ٤٤٧هـ، إذ سيطر (طغرل بك) السلجوقي على بغداد.

وما ان توجه السلاجقة إلى البصرة حتى واجهوا رفضا شديداً من اهلها لكنهم أخضعوها بالقوة، وفي هذه الاثناء تعرضت البصرة إلى هجمات البدو والاعراب، رافقها سلب ونهب واحراق لأكبر أسواقها، وكان الاشد إيلاماً احراق المكتبات الكبيرة في البصرة التي كانت تضم نفائس الكتب واهم المصادر التي يرجع اليها طلاب العلم، وبذلك فقد الحقوا بالمدينة خسارة ثقافية كبيرة فضلاً عن الخسارة المادية. (٤)

هكذا كانت البصرة – ايام حياة الحريري – تعيش معاناة حقيقية من اضطرابات ونزاعات ونهب وسلب وتدمير انعكست اثاره على الانسان البصري.

هنا يمكن القول ان المقامة هي الفن الأدبي المناسب لأن يرسم فيه الحريري رؤيته ازاء الاوضاع التي تعيشها مدينته حتى لو تحدث عن مدينة اخرى فإن مدينته حاضرة في كلامه مُتَضَمَّنٌ فيه لأن صورة الظلم التي يعيشها تشاطرها فيها مدن اخرى كما هي (تبريز) فالكل في ضياع،و في خضم ذلك الضياع نراه يعرّض

بالسلطة باسلوب قصصي بارع سيجد بالتأكيد استجابة كاملة عند متلقيه وعلى سبيل المثال يقول على لسان امراة أبي زيد السروجي حين لم يُنصفها الحاكم، إذ فضّل الزوج وأكرمه، وردّها خائبة:

يا أهل تبريز لكم حاكم اوفى على الحكام تبريزا

ما فيه من عيب سوى انه يوم الندى قسمته ضيزى[٥]

وهكذا فالحريري لم يكن بعيدا عن مسرح الأحداث فقد شهد نهاية البويهيين وحكم السلاجقة وبداية الحروب الصليبية بل كان شاهداً عليها.

ولا يُستبعَد ان تكون (المقامة) في مضامينها وفي رموزها رداً ذكياً على تلك الظروف والأوضاع، كما من الممكن ان يكون اسلوبها البلاغي الرائع، ولغتها العالية رداً مناسباً على كساد أسواق الأدب والثقافة، وقد بين الحريري ذلك على لسان الشيخ الذي يتوجع توجع الثكلان وعيناه تسيلان بالدمع إذ قال:

« **والله ما تأوهي من عيش فات، ولا من دهر افتات، بل لانقراض العلم ودروسه، وافول اقماره وشموسه**» [٦]

لقد كانت المقامة فناً ادبياً عالياً قد نما ونضج على يد الحريري في تلك الظروف الصعبة، ولعل هذه الظروف هي التي دعت إلى أن تعبّر المقامة عن الشخصية التي تقوم بأداء دور (المكدّي) الذي يحاول ان يكشف عما حل به من مآسٍ من جراء واقعه المتردي، ولا شك ان هناك صلة بين المكان والحالة الاجتماعية التي يكون عليها شاغلوه، فالكدية تعبير عما عليه المكان من ضيق ونكد وتدني الحال.

ان ما يراد تأكيده هنا هو ان المقامة لا يمكن ان تقف خارج المكان، فهي حاضرة فيه وهو حاضر فيها، لذا جاءت المقامة الخمسون التي ختم بها الحريري مقاماته موصوفة بالمكان، وكانت الأكثر تركيزاً عليه، ان ما يلاحظ في المقامة البصرية هو أنّ الحديث عن المكان قد اتخذّ مسارين:

الاول: يتعلق بجامع البصرة.

الثاني: يخص مدينة البصرة.

ومع انّ المكانين متداخلان جغرافياً ووظيفياً، فمن المفيد ان

نخصّ كلَّ واحدٍ منهما بما يحيط به ويجلي وظائفه، وعلى النحو الاتي:

جامع البصرة (المكان الصغير).

يُعدُّ مسجد البصرة أول وحدة عمرانية وضعت خططها بعد تمصير البصرة سنة (١٤هـ)، وكان في البداية بناءً بسيطاً استخدم المسلمون القصب في بنائه، ثم اعيد بناؤه من اللبن والطين وفيما بعد بني من الاجر، واستمرت التحسينات العمرانية على المسجد بمختلف صنوفها، فبنيت فيه اساطين ضخمة من الحجارة التي جلبت من جبال ايران، وكانت هذه الاساطين اماكن لتجمعات الشيوخ والمحدثين والعلماء وتلاميذهم، ومحبّي المعرفة، فتشكلّت حول كل اسطوانة من اساطين المسجد حلقة دراسية، وكان التلاميذ والمستمعون فيها يتحلقون حول شيخهم ليستمعوا إلى ما يريدون معرفته من العلوم فكانت هناك حلقة للنحو واخرى للأدب وثالثة لأمور اللغة ورابعة لعلم الكلام وغير ذلك.[٧]

والظاهر ان هذا المسجد قد حظي بعناية خاصة

وكبيرة من لدن الامام علي عليه السلام أيام خلافته، فبعد الانتهاء من إخماد الفتنة في واقعة الجمل مكث عليه السلام اثنين وسبعين يوماً (٧٢) يوماً في البصرة، وعلى الرغم من قصر هذه المدة فقد تركت أكبر الاثر في حياة البصريين وفي المسارين: الفكري والحضاري لمدينتهم.

وكان أول ما اكتسبه المسجد الجامع هو ان صلّى فيه الامام عليه السلام، الامر الذي رشحه لأن يكون من المساجد التي يجوز الاعتكاف فيها. (٨)

لقد خطب أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المسجد، واوصل رسالته إلى المسلمين معرّفاً بحقيقة دينهم، ومحذراً من المنافقين ومن سوء نواياهم في تحريف الحقائق، وفي هذه الاثناء لمس المسلمون في شخص الامام التجسيد الكامل لسنة الرسول صلى الله عليه وآله في شكلها وواقعها الحقيقين.

ان ما قام به الإمام عليه السلام في هذا المكان يُعَدُّ اصلاحاً معنوياً كبيراً وفي الوقت نفسه فقد قام الإمام باصلاحات مادية شملت

تصحيح قبلة المسجد لتكون اقوم أرض الله قبلة [٩]،كذلك قام عليه السلام بحفر بئر للمصلين في هذا المسجد [١٠]، لكن اللافت للنظر، بل الباعث على التساؤل هو ان الامام قد علّم في جامع البصرة كميل ابن زياد رضي الله عنه الدعاء الكثير البركات المعروف بدعاء كميل، وفي المكان نفسه أرسى عليه السلام أسس النحو طالباً من أبي الاسود الدؤلي أن يضع للناس قوانين صارت قاعدة لأنبثاق أول مدرسة نحوية ما زال اللسان العربي مديناً لها في السير على جادة الصواب بعيداً عن اللحن.

فلماذا مسجد البصرة مكاناً لتعليم هذا الدعاء ؟

ولماذا هذا المكان محلاً لوضع أسس النحو ؟

لماذا أقيمت هذه الجسور في مسجد البصرة دون غيره لتّمتد من هناك بين المسلم وربِّه، وبين المسلم ولغته، ومن ثم تنتقل إلى انحاء الدنيا..... ؟

لاشك ان الإمام عليه السلام قد زار الكثير من الأمكنة لكن ما قدمه للبصرة كان متميزاً بل متفرداً، لذا فقد حمل هذا المسجد اسمه فما

كان يعرف الا به، وفي هذا كله إشارة واضحة إلى أهمية هذا المكان والقيمة العالية للذهنية البصرية وما لها من القدرة على تأسيس المعارف ورفد الثقافات والاسهام في بناء الحضارة وصنع التاريخ.

هكذا تحول هذا المكان إلى مدرسة، وصار دالاً تأسست في دائرته الكثير من المدلولات المعرفية حتى غدا مناراً لطالبي المعرفة ومركزاً إشعاعياً ثقافياً في أعلى المستويات ولعله كان يمثل أول جامعة إسلامية فتحت أبوابها لطلاب العلم من كل الامكنة والنواحي.

والحريري حين كتب مقامته البصرية كان على دراية كاملة بهذه الحقائق التاريخية، لذا فقد بثّ وهو يتحدث عن الجامع والمدينة الكثير من الفضائل والميزات التي تُشعر بتفرد المكان البصري، فجامع البصرة يؤدي أكثر من وظيفة تُلمّح بأهميتهِ وبمكانته العالية ومن ذلك:

١- إجلاء الفِكر:

ان تهيئة الفكرة للتلقّي وخلق أجواء من الراحة والسرور

تُعمق الفهم وتُنعش الثقافة، والمتلقي يحرص كل الحرص على مثل هذه الاجواء لأنها العنصر القوي في التعليم والتفاعل مع المنجز الثقافي، هذا إذا كان المتلقي على درجة عالية من الوعي ومن الدافعية للتزود بالمعرفة، واذا ما كان المكان مجلساً من مجالس الذكر، فهو بلا شك منبت افكار، ومصدر ثقافة، ورافد معرفة. لذا فقد تجلت هذه الوظيفة في الاسطر الاولى من (المقامة البصرية) لكونها وظيفة اساسية من وظائف الجامع:

« **وكنتُ سمعت ان غشيان مجالس الذكر يسرو غواشي الفكر، فلم أرَ لإطفاء ما بي من الجمرة، الاّ قصد جامع البصرة** »[١١]

والمفردة (مجالس) هي جمع لـ (مجلس) وهو اسم مكان على وزن (مَفعِل) اشتق من الفعل الثلاثي الصحيح للدلالة على مكان وقوع الفعل ومعناه.

وقد جاءت (مجالس)محددة أو مخصصة بالاضافة ليفيد بذلك حصرها في مجالس معينة.

ولم ينته التحديد عند هذا الحدّ بل صير إلى تحديد أخر رسمَ

الحدود الدلالية للمكان بكل وضوح، فمحل مجالس الذكر هو (الجامع) وهو المكان الذي يدل اسمه على التعبّد، لكن المقامة تعطيه وظيفة تثقيفية وتعليمية حتى كأن الراوي يريد ان يقيم علاقة تلازمية بين (العبادة) و (الثقافة)، فالعبادة طريق إلى الثقافة والعكس صحيح.

إن (المسجد الجامع) هو المكان المناسب لمثل تلك المجالس لذا فهو مقصد الراوي، و(المقصد) على ما هو معروف في اللغة مصدر (قصد) وهو ما يرمي اليه جهد أو فعل أو إرادة، وهو مطلب يسعى اليه المرء للحصول عليه.

إذن فالراوي جعل جهده وفعله وإرادته تسير نحو هدف واحد وفي اتجاه واحد هو الوصول إلى (المسجد الجامع في البصرة) وهو غاية القصد الذي تنتهي عنده الحركة التي بدأت مسارها من محل العموم (مجالس) إلى موضع (مخصوص) هو (جامع البصرة).

ان المسار الأفقي يبثّ دلالته في ضوء محددات يمكن تحديدها على النحو الاتي:

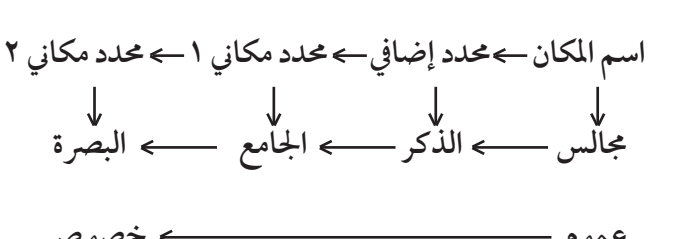

كما ان المسار العمودي الذي يمثل المحور الاستبدالي يدل على ان الانتقاء من بين امكنة كثيرة قد جرى على أسس ومحددات كثيرة كانت مرسومة في ذهن الراوي الذي يدرك تماماً عظمة المكان المقصود.

لقد وصل إلى التحديد الاخير للمكان (جامع البصرة) فوجد أنّ من الضروري التعريف به وفي ضوء هذا التعريف تبينت أهمية المكان. ولا تكمن تجليات تلك الاهمية في الامتداد الجغرافي وانما في الامتداد القيمي الذي راح يبث دلالته من مساحة قيمية انشأها الحريري فوق أرض البصرة بعد ان وجد ان المدينة مكان مؤسَّس على أساس القيم وهي في الوقت نفسه مكان مؤسِّس للقيم، ومهما قَستْ الظروف واشتّدتْ المحن يظلّ متمسكاً بهويته وامتداده في التاريخ.

نعود إلى الراوي لنلاحظ انه عندما يكون خارج المكان (الجامع) فهو يعيش حالة غمّ وهمّ، وكان يرى ان الوصول إلى ذلك المكان سيسرو او سيكشف غمّه:

« **حكى الحارثُ بن همّام قال: أُشعرت في بعض الايام هَماً برَّحَ بي استعاره ولاح عليَّ شعارُه، وكنت سمعتُ.....** »

هذا يعني ان وجوده داخل (جامع البصرة) ذهاب لحزنه ذلك الحزن الذي تغشّاهُ واشتدّ عليه التهابه وتوّقده، حتى بانت آثاره لكنّهُ الان مغمور بالسعادة لبلوغه مأربه ولوجوده في المكان الذي كان يبتغيه، ولكن ما السّر في هذا المكان ؟ وما صلته بالمكان الاكبر (البصرة) ؟

الجواب يتضح فيما سيبينه الراوي من اوصاف كشف فيها اهم وظيفة من وظائف المكان، وهي الوظيفة الثقافية أو المعرفية وهذه صفة كافية لصنع الانسان ورسم حركته وتحقيق سعادته، فما الذي في هذا الجامع ؟

ان المواصفات التي فيه قد لا يمتلكها غيره، وهذا ما بينته

المقامة على ما سيتبين في الوظيفة اللاحقة.

٢- التواصل:

كانت العبارة الاولى التي نعت بها الحارث بن همّام (جامع البصرة) تؤكد أن هذا المكان كان على تواصل مع محبيه ورواده على المستويين: العبادي والثقافي، فهو على ما قال:

« **ماهول المساند، مشفوه الموارد**»

فهاتان الصفتان قد انبنى فيهما التركيب على اساس الاضافة، وقد أضيف فيهما اسم المفعول إلى مرفوعه، واسم المفعول اسم مشتق يدل على امرين معاً هما: المعنى المجرد وصاحبه الذي وقع عليه.

ان دلالة اسم المفعول - كما هو معروف -دلالة حدوثية، لكنّها أفادت هنا الملازمة الدائمة، لأن المراد منها الثبوت، ولعل هذا الذي سوغ الاضافة وان لم يكن شرطاً حاسماً، الا ان وجود القرينة المعنوية هو الذي أعطى التركيب معنى الملازمة.

إنّ ثبوت المعنى ودوامه كان مدعاة لتحويل الكلمة من بابها

(اسم المفعول) إلى باب أخر هو (الصفة المشبهة)، مع بقاء اللفظ على صورته لكونه تحولاً دلالياً لا مساس له بالشكل وهذا هو المطلوب لأن وجود أهل العلم في المسجد يعني أنهم عند المورد الذي ينهلون منه المعارف، وهذا أمر لا يتحدد بوقت أو بزمن معين، وبتعبير أخر ان الوظيفة الثقافية للمسجد وظيفة ملازمة لا تفارقه شأنها شان العبادة فهما صفتان متلازمتان له ودائمتان.

لقد انتقى الحريري لفظتي (مأهول) و (مشفوه) وكان امامه خيارات وبدائل أخرى على المحور العمودي الاستبدالي فلم يقل على سبيل المثال (عامر أو معمور) كما لم يقل (كثير) لأن في اللفظتين اللتين اختارهما معنى زائداً على (العمران) والكثرة، هو ان العلماء المعمور بهم المسجد هم أهل العلم حقاً، وان هذا المكان الذي اجتمعوا فيه أهل لتلك المهمة وقد استعار في التركيب الاضافي الثاني لفظ (مشفوه) للكثرة وكانت العرب تقول للماء اذا كثرت عليه شفاه الواردة: ماءٌ مشفوه، وتقول للطعام اذ كثرت عليه الايدي طعام مشفوه وهنا اراد بـ(مشفوه الموارد) انّ طلاب

العلم الواردين إلى هذا المكان كثيرون.

ثم راح الراوي يؤكد صورة العطاء وتميزه النوعي فبعد ان نعته بأنه « مأهول المساند، مشفوه الموارد » قال:« **يُجتبى من رياضه أزاهير الكلام، ويُسمَعُ في أرجائهِ صريرُ الاقلام** ».

بهذا الوصف يكون الجامع قد أدى وظيفته التواصلية في أحسن صورة فهو لا يكتفي بمد الجسور بين المكان والإنسان وإنما هو ذو تأثير كبير بشاغليه، ولهذا شبه عطاءه بالرياض مستعملاً صورة الجمع، فلم يقل (الروضة) وذلك لإفادة الكثرة والتنوع واختلاف ألوان الجمال، فلم يُجتبَ الكلام في هذه الرياض وإنما أزاهير الكلام وفي هذا التعبير إيحاء بحاستي اللمس والبصر لكنه إيحاء معنوي ولم يكن مادياً، وإنما هذا الأخير يتجلى في حاسة السمع التي راحت تلتقط من نواحي الجامع المختلفة أصوات حركة الأقلام وهي تكتب وتنسخ وتوثق العلوم وهنا قد جرى التركيز على التلقي وهو تلق عال ومثالي، فمنتج النص عالم جليل لذا ورد اليه الطلاب من مختلف الاماكن والافاق حتى غص بهم

المسجد، وبهذا يكون هذا المكان منتج ثقافة وصانع مثقفين.

ان هذه المواصفات العالية تجعل المكان أكبر من الجغرافية، مع أنه ينتمي اليها، وهو ليس مكاناً عصيّ الاكتشاف، بل هو مكان محدد اكتسب جماليته من امتداداته خارج محدوديته، وذلك ان العلم الذي يبثّهُ المكان سيتحول إلى بناء وحضارة ونهوض، وسينتشر في اماكن متعددة أخرى.

لقد اشعرنا الحريري وهو يتحدث عن (جامع البصرة) ان له (مظهراً خلفياً)[١٢]غير مباشر اتاح للمتلقي إدراك المكان في ضوء أدوات اللغة، فمنتج النص (العالم) حين يمارس وظيفته في بث رسالته وتوصيلها إلى (المتلقي) يحتاج إلى مكان يجلس فيه ويراه فيه الاخرون.

« **تراءى لي (....) فوق صخرة عالية** »

هذا العلو هو علو مكاني يشير في الوقت نفسه إلى علو منزلة (المنتج)، وهكذا فالأمكنة مراتب والناس موزعون أو مرتبون على وفق الامكنة، الأعلى فالأقل علواً حتى الأدنى، وهي تراتبية

يجري التفاضل فيها على اساس معرفي لا غير.

هكذا جعل الحريري انتاج النص وتلقيه في مكانين مختلفين أو في مرتبتين متمايزتين.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان منتج الخطاب ثابتاً من حيث المكان، في حين المتلقي ينتقل من مكان إلى اخر، ربما لكثرة الجالسين:

« **وقد عصُبتْ به عُصَبٌ لا يُحصى عديدُهم، ولا يُنادى وليدهم، فابتَدْرتُ قصده، وتورّدْتُ وِرْده، ورجوتُ ان أجد شفائي عنده** »

والعُصب جمع عصبة وهي الجماعة، وربما كان له هدف أخر – مع ما أشار اليه – هو القرب من صاحب الخطاب لأنّ هذا القرب سيحقق له الكثير من التركيز والفائدة ولعل الحريري اراد بذلك تقريب المسافة بين (المنتج والمتلقي).

« **ولم أزلْ أتنقّلُ بين المراكز (...) إلى ان جلستُ تجاهه** ».

والمراكز جمع مركز وهو اسم مكان بمعنى موضع الجلوس وهو مكان الارتكاز والثبات.

اذن فالمتلقي كان في حركة بين المراكز ينتقل من موضع إلى اخر حتى يجد مبتغاه، واستعمال صيغة الجمع (المراكز) يوحي بسعة الجامع وبكثرة رواده من طالبي العلم.

هذه الحركة تعطي الدليل على عمق التلقي وعلى القيمة الكبيرة التي يحملها المتلقي في نفسه من صاحب العلم لذا فهو يختار المكان الاقرب الذي يتمكن ان يرى فيه (منتج الخطاب).

ان المسافة بين الحركة والثبات هي المسافة بين القلق والراحة، بين الشك واليقين، بين الغمّ والسرور.

« **فإذا هو شيخنا السروجي لا ريب فيه، ولا لبْس يخفيه، فانبرى بمرآه همي، وارفضَّت كتيبة غمّي، وحين رآني وتبصّر بمكاني، قال:.....** »

المتلقي الان صار مهيئاً تماماً لاستقبال الخطاب ممّن قصده، فهو الان مغمور بالسعادة، لأن الغمّ والحزن على ما يفهم من المقامة – يفسدان التلقي، وسرّ سعادته هو رؤية شيخه السروجي وتأكده من شخصه، كذلك كان الشيخ السروجي يمتلك دراية

كاملة بذلك الجالس قباله، فما قاله كان خاصاً بالهوية، لأن ذلك المتلقي ينتمي إلى مدينة تستحق الثناء والمدح، وتستحق ان تكون موضوعاً للخطاب، لذا فهو يتوجه اليه والى كل الجالسين في المسجد ليتحدث عن المكان الاكبر (المدينة) تلك التي تمتلك من الحسنات والمزايا ما لا تمتلكه مدينة اخرى.

ان القيمة التاريخية والحضارية والعلمية للبصرة قد جعلت منها موضوعاً للمقامة الاخيرة من مقامات الحريري، ولا شك ان صاحب هذا النص يدرك تماماً العمق التاريخي لمدينته التي وصفت بأنها ومصر جناحا الدنيا، على حدّ ما نقله صفي الدين أحمد بن عبد الله بن محمد الرازي (ت ٤٦٠ هـ) في كتابه (تاريخ مدينة صنعاء) عن وهب بن منبه (١١٤هـ) أنه قال:

«**مُثلت الدنيا على مثال الطير، فالبصرة ومصر الجناحان**».

هذا القول يؤكد ما تحتله البصرة من مكانة عالية بين الأمكنة وذلك من خلال تشبيهها بالجناح من الدنيا التي شبهها بالطير، ومعلوم ما للجناح من أهمية كبيرة بالنسبة للطير فكذلك هذا

المكان له تميز ووظائف كبيرة قياساً بالأمكنة الاخرى.

إذن فمنتج الخطاب سواء اكان الشيخ السروجي أم الحريري يدرك تماماً أن الحديث عن (الإنسان والمكان) أو عن (البصرة وشاغلها) ضرورة تاريخية، فكلا المسارين منبعا إثراء، وكل واحد منهما يرفد الاخر ويأخذ منه،فالمدينة (المكان) مرآة الإنسان والعكس صحيح، وهذا الذي يقيم بينهما جسراً للمحبة والتفاعل.

المكان الاكبر (البصرة)

إذا نظرنا إلى المقامة على انها فن سردي – كما أشرنا سابقاً – فمن الممكن مقاربتها في ضوء مكونات الخطاب السردي، وعلى ما هو معروف أن الحكي يقوم على دعامتين أساسيتين: [١٣]

الأولى: ان يحتوي على قصة أي ان هناك احداثاً معينة يضمها الخطاب.

و الثانية: أن يُعيَّنُ السرد، أي الطريقة التي تُحكى بها القصة.

واذا كانت هناك قصة تُحكى فلابدّ من وجود شخص يَحكي واخر يُحكى له، وهذا يعني أن هناك تواصلاً بين طرف اول يدعى (راوياً)، وطرف ثان يدعى (مروياً له)، وعلى أساس مبدأ الثقة تقوم العلاقة بين الطرفين، ومن المؤكد أن للراوي وسائله في تقديم خطابه للمروي له، أو بحسب ما يسميه النقاد بـ(زاوية الرؤية) التي هي مسألة تقنية ووسيلة من الوسائل التي يتبعها الراوي لبلوغ غاياته [١٤] ولا شك ان هذه الغايات هي نفسها التي يهدف اليها

الكاتب،ولكن يجري توصيلها عبر من يروي خطابه، واذا تمعنا في المقامة فإن(زاوية الرؤية) يمكن وضعها في نمط (السرد الموضوعي) لأن الكاتب او الراوي على دراية كاملة بكل تفاصيل موضوعه لذا جاء وصفه أو حديثه عن المكان في المقامة البصرية وصفاً محايداً لم يتدخل فيه فيفسّر كلّ شيء، وانما يترك للقارئ تفسير ما يُحكى له، وهي على ما يبدو (رؤية من الخلف) [١٥] ذلك ان الراوي في هذه المقامة يمتلك معرفة كاملة بالمكان على ما يتبين في حديثه عنه.

ان الحديث في المقامة البصرية عن المكان قد دار بين شخصيتين، الأولى وقفت عند وظيفة التلقي وهي شخصية (الحارث بن همّام) مع محاولتها إضاءة جانب من المكان تمثل في (الجامع)، في حين وقفت الثانية عند وظيفة (منتج الخطاب أو العالِم) وهي شخصية (أبي زيد السروجي) التي تكفّلت بإنارة المكان الأكبر (البصرة)، ولدى ملاحظة الوصف الوارد للمكانين يتبين الآتي:

١- ان المكان الاول (الصغير) هو مجلس من مجالس الذكر ومكان للعلم والفضيلة ونشر القيم ولهذا فهو يتميز بمزايا عالية تجعل له خصوصية وتميزاً.

٢- ان هذا المكان بسماته هذه لابُد ان يكون جزءاً من مكان يمتلك خصائص ومواصفات عالية لكي يحصل توافق وانسجام أو ملاءمة بين المكانين.

٣- ان المكان جزء لا يتجزأ من المقامة وهو لا ينفصل عن الإنسان، فهناك تداخل حميمي بين بصرية المكان وبصرية الإنسان وكأن هذا المكان بمواصفاته العالية التي ذكرتها المقامة قد اختار ساكنيه وفاقاً لتلك المواصفات.

إنّ تتبع المكان في المقامة البصرية يرينا انه مقوم من مقوماتها وأنّ له دوراً واضحا فيها، فالبطل أبو زيد السروجي يتخذ له في المسجد مكاناً متميزاً يمكنه من رؤية الجميع، كما ان بإمكان الجميع رؤيته، كذلك الحارث بن همّام الذي لم يكن (الجامع) وحده في قصديته، بل ان المكان الذي سيكون موضع جلوسه هو

المقصود أيضاً، لذا فهو يتنقّل بين الأمكنة في داخل المسجد حتى يختار مكاناً يجعله قريباً من منتج الخطاب يؤدي إلى تحقيق رؤية متبادلة بينهما.

إنّ إعطاء وظيفة للمكان في النص المقامي أمرٌ يجعل هذا النص مختلفاً عن نصوص عصره أو النصوص السابقة، لأن العرب على ما يبدو كان تركيزهم على المعنى لأن بلاغة المعنى هي الشعرية المنشودة في خطاباتهم، إذ لم تكن العلاقة التي تربط النص بالمكان علاقة جمالية،وإنما هي علاقة خارجية ليست بالحميمية التي تبث في ضوء المكان إيحاءات شاعرية، ذلك ان المكان لم يكن في النص الشعري العربي القديم سوى إطار تزييني.

أما في المقامة فالمكان عنصر من عناصر النص أي عنصر من عناصر تكوينه وبنائه ولا يمكن الاستغناء عن وظيفته فهو من خلالها يُثبت وجوده بوصفه عنصراً فاعلاً ومتفاعلاً.

ان الحريري وهو يتحدث عن البصرة بوصفها مكاناً يجعل لها أكثر من وظيفة تتجلى منها مقومات الجمال والشعرية، وكأن

النص يريد ان يُقدم للمتلقي مغريات لزيارة ذلك المكان وربما الإقامة فيه والانتماء إليه.

هناك فرق بين ان يكون المكان عنصراً من عناصر شعرية النص، او أن يكون إطاراً للموضوع فقط.

فعلى سبيل المثال كانت الاطلال موضوعاً من موضوعات القصيدة الجاهلية، لكنها ليست عنصراً من عناصر شعريتها، لأنها كانت تمثل مدخلاً إلى اغراض القصيدة الاخرى، واذا ما حاول أبو نؤاس أن يسخر ممن وقف واستوقفَ، وممن بكى واستبكى على الاطلال، فليس من الانصاف اتهامه بالشعوبية، ذلك ان هذا الشاعر البصري في تجاوزه الموروث يكون قد أدخل شعريته في صراع مع شعرية الموروث، وهو صراع بين الثبات والتحول، فشعرية أبي نؤاس ترتكز إلى واقع مكاني غير منفصل عن زمنه الاجتماعي، لذا فعلاقته التي يقيمها مع المكان مختلفة تماماً عما عند الاخرين، وان صراعه هذا هو صراع بين حياة تموت في ثباتها المكاني والزماني، وحياة تولد في تحولها التاريخي فتتولد

جمالية علاقتها الشعرية بالمكان. [١٦]

واذا عدنا إلى المقامة البصرية سنجد ان الوظيفة التي يشغلها المكان فيها انما هي وظيفة جمالية وفي الوقت نفسه وظيفة ثقافية، وعلى هذا الاساس فالمكان يشكل عنصراً من عناصر شعرية الخطاب المقامي، وهذا ما يتضح في ضوء الوظائف التي يؤديها المكان والتي سيكون في إطار عرضها حضور للسياق التاريخي بمحاذاة سياقها في المقامة وعلى النحو الاتي:

١ – الوظيفة الدينية

ان النعوت التي نعت بها الحريري مدينته تؤكد أهليتها لأداء وظيفة دينية في اعلى المستويات، فقد مصّرت البصرة في سنة (١٤هـ) أي في عصر الاسلام، ومع بدايات التأسيس أختط مسجدها فأرتفع الاذان في أرجائها، وصلى المسلمون على ترابها ثم توافد اليها المسلمون من كل حدب وصوب، حتى غدت من المدن الاسلامية المهمة في نشأتها، وما ان مضى وقت قليل على تأسيسها

حتى صارت منبتاً لكثير من علوم اللغة والدين خدمة لكتاب الله العزيز.

لقد تفاعلت هذه الارض مع رسالة السماء فجاهدت وكافحت وحملت القلم لبث الوعي وتأسيس منظومة معرفية يجد فيها المسلمون كلّ ما يحتاجون اليه في مساريهم: العلمي والعملي.

وكانت الاكثر نهوضاً بوظيفتها هذه ايام خلافة الامام علي عليه السلام وحصراً بعد واقعة الجمل التي قمع فيها الامام الفتنة التي اتخذت من البصرة مكاناً لها وراح في الايام التي قضّاها في البصرة يخطب بالناس ويصحّح وجهات نظرهم في خلافته ويعطي الدروس تلو الدروس ليؤكد لأهل البصرة أهمية مدينتهم واثرها الكبير في نشر علوم الدين، ومبيناً انها المكان الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله في حديثه عنها إذ قال:

«**تفتح أرض يقال لها البصرة، أقوم أرض الله قبلة، قارئها أقرأ الناس، وعابدها أعبد الناس، وعالمها أعلم الناس، ومتصدقها أعظم الناس صدقة**» (١٧)

وقد أكد الامام حين قدم البصرة هذه الوظيفة الدينية إذ خاطب أهل البصرة بمثل ما ذكره الرسول ﷺ:

« **يا أهل البصرة أنتم أقوم الناس قبلة، قبلتكم على المقام حيث يقوم الامام بمكة** »

ومنذ ذلك الوقت والبصرة تشهد نشاطاً دينياً متميزاً في نشر علوم الدين من تفسير وحديث واصول وفقه وغير ذلك، وفي كتب التاريخ الكثير مما يؤكد ذلك، والحريري على دراية كاملة بحقائق التاريخ، وما للبصرة من أثر في الاسلام،ولا شك أنه قد بنى مدحه للبصرة في مقامته الاخيرة على ما ورد في حديث رسول الله ﷺ، وفي خطبة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، « **وانما ختم كتابه بذكر البصرة وأهلها لتقوى مفاخرهم، ومفاخر بلدهم في البلدان** » [١٨] لذا فقد وصفها قائلاً:

« **بلدكم أوفى البلاد طهرة، وازكاها فطرة** »

هنا خصصّ (بلد) بالضمير (كم) الذي يعود إلى (أهل البصرة).

« **يا أهل البصرة....بلدكم.....**» وبهذا تتحدد مقصديته ليبدأ بعد ذلك بوصف البصرة بالاوصاف التي تؤكد ريادتها في الوظيفة الدينية، فهي في مرتبة متميزة تتفاضل بها مع غيرها من الامكنة وهذا الذي دعاه إلى استعمال التفضيل في (أوفى) و (أزكى)، ومعروف أن اسم التفضيل هو اسم مشتق على وزن (أفعل) يدل غالباً على ان شيئين اشتركا في معنى وزاد احدهما على الاخر في هذا المعنى.

ان اسم التفضيل (أوفى) قد جاء هنا بمعنى (كثير)، قال ابن منظور: « **وفى الشيء: كثر...وكلّ شيء بلغ التمام والكمال فقد وفي وتم**».[١٩]

والحريري بوصفه هذا اراد ان يؤكد ان البصرة أكثر الامكنة (طهرة) وأتمها، و (الطهر) نقيض النجاسة، والرجل الطاهر الخالي من العيوب والمنزه من الادناس، قال تعالى:

﴿ **أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين** ﴾ (البقرة:١٢٥)

أي طهراه من الاصنام، والطاهر الذي لا دنس فيه ولا باطل،

والماء الطهور هو الماء الذي يتوضأ به فيزيل النجس، والتطهّر: التنزه عمّا لا يحلّ وهم قوم يتطهرون أي يتنزهون.

ولأن البصرة قد مُصرت وبنيت في الاسلام فلم تتنجس بعبادة الاصنام.

ثم جاء التفضيل الثاني (أزكى)، والتزكية هي تطهير أيضاً فمن زكّى ماله طهّره، وهذا المكان الذي تتحدث عنه المقامة مكان مزكّى منذ خلقته أي أنّ الطهارة والتزكية قائمان به ملازمان له منذ تكوينه وتأسيسه، فهو اذ يكون مكاناً لنشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة، مكانا لصيقاً بالاسلام والاسلام لصيق به لا يعني ان هذه الصفة دخيلة عليه بل هي أصيلة فيه.

ويبقى الحريري في إطار تأكيد هذه الوظيفة في ضوء ما يذكره من الصفات، فمن طهارة المكان ونقائه، إلى اتجاه القبلة فيها، وهي من هذه الناحية فاضلة على غيرها أيضاً اذ أوردها بعد اسم التفضيل (أقوم) في قوله:

« **واقومها قبلة** »

ولعله يشير في هذه إلى ما رواه عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وآله انه قال فيما معناه أنه سيكون مصر يقال له البصرة أقوم الناس قبلة واكثر مؤذنين،يدفع الله عنهم ما يكرهون.

فضلاً عن هذا فإن لهذا المكان صلة وعلاقة بمكان مقدس هو بيت الله الحرام لأن البصرة كما يقول الحريري:

« **دهليز البلد الحرام، وقبالة الباب والمقام** ».

وكأنه أراد ان يؤكد ان هوية ذلك المكان (البصرة) الكاشفة للطيبة والطهارة والنقاء والاصالة تجعل له انتماء إلى الاماكن المقدسة، فهو دهليز البلد الحرام، و (الدهليز) هو المدخل من الباب والدار ويقال أيضاً للطريق الطويل الضيق(دهليز)، ويذكر ان في ذلك الوقت كان هناك طريقان إلى مكة هما: طريق الكوفة وطريق البصرة، وكان طريق البصرة أخصر وأقصر،وقيل أن سبب نعتها ذلك هو عدم وجود بلد أخر بينها وبين مكة.

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فإن موقع البصرة يكون في قبالة مكة المكرمة ومقام سيدنا ابراهيم عليه السلام. وهكذا تتلازم

الصفات لتعطي هذا المكان أفضلية وخصوصية وتحاول المقامة البصرية أن تُؤصّل هذه المتلازمات وتجذرها في هذا المكان، ولذا يتضمن التوصيف اشارة إلى الاصل، كما في قوله:

« **المصر المؤسس على التقوى، لم يتدّنس ببيوت النيران، ولا طِيفَ فيه بالاوثان، ولا سجد على أديمه لغير الرحمن**».

والإشارة إلى البصرة بالمصر اشارة إلى انها حاضرة بنيت على اساس خطط ونظام، وانما جُعل تأسيسه على التقوى من الثناء العالي لهذا المكان لأن التقوى اعلى مراتب الايمان ولذا جعل الله كتابه العزيز هداية للمتقين في قوله تعالى:

﴿**ألم (١) ذلكَ الكتابُ لا ريبَ فيه هدىً للمتقين (٢) الذين يؤمنونَ بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهُم ينفقون (٣) والذين يؤمنون بما أُنزِلَ اليك وما أُنزِلَ من قبلك وبالآخرة همُ يوقِنون (٤) أولئكَ على هُدىً من ربِّهم وأولئك هم المُفلحون (٥)**﴾ (سورة البقرة)

والتقوى هنا « صفة جامعة لجميع مراتب الايمان إذا تلبسّ

الايمان بلباس التحقق »[٢٠]

وفي سورة البقرة وردت الاشارة إلى خمس صفات هي مقياس التقوى، كما تبين في الايات (٣و٤و٥) وهذه الصفات هي: « الايمان بالغيب، واقامة الصلاة، والانفاق مما رزق الله سبحانه، والايمان بما أنزله على انبيائه، والايقان بالاخرة، وقد وصفهم بأنهم على هدىً من ربّهم فَدَلّ ذلك على ان تلبسهم بهذه الصفات الكريمة بسبب تلبسهم بلباس الهداية من الله سبحانه، فهم انما صاروا متقين أولي هذه الصفات بهداية منه تعالى، ثم وصف الكتاب بانه هداية لهؤلاء المتقين »[٢١]

عند هذا يمكننا أن نتصور المكان الذي أساسه التقوى، فهو بلا شك مكان مبارك وهو في محل عالٍ بين الامكنة، وقد ذكر الحريري مسّوغات هذا النعت، وهي ان النار لم تعبد فيه ولا الاصنام أي أن هذا البلد خال من المجوس، ومن أي لون من ألوان الشرك لأن المسلمين هم أقاموا اساسهُ ووضعوا خططه، ومن ذلك الحين والمسلمون وحدهم الذين يسجدون على ترابه

لله وحده لا شريك له.

ويبقى هذا المكان زاخراً بالفضائل، فهو « **ذو المشاهد المشهودة والمساجد المقصودة والمقابر المزورة** ».

هكذا في المقامة البصرية يجري الحديث تارة عن المكان بوصفة كُلاً، واخرى يدور الحديث عن اجزائه محاولاً في كل مرة ينتقل فيها من مكان جزئي إلى آخر أن يقدم لنا معلومات جديدة تجعلنا في مجموعها نتوق إلى أن نتصفح تاريخ مدينته لكي نتعرف إلى كل دقائقه وتفاصيله، لأن الكاتب لم يكن مؤرخاً ولا يراد منه ذلك في نص أدبي يسجل انتماءه إلى عالم السرد، لهذا فهو لم يقل كل شيء عن مكانه ولم يُطنِبّ ولم يدخل في التفاصيل بل راح يكثف لينتج نصاً تتجلى فيه الوظيفة الجمالية الباعثة على الايحاء.

لقد اكتفى الحريري بأن يعطي كلّ جزئية من جزئيات المكان صفة واحدة:

مشاهد ⟵ مشهودة

مساجد ⟵ مقصودة

مقابر ⟵ مزورة

لكن هذه الصفة قد تعدت حدود دلالتها وراحت تبث دلالات كثيرة، فالمشهودة تتضمن أخباراً قاطعة لا يخالطها الشك لأن الحاضر في المكان ليس راوياً أو ناقلاً وانما هو شاهد عليه كذلك المساجد توحي بكثرة اماكن العبادة في هذا المكان وهذه الكثرة ترتبط بكثرة المصلين بما يوحي بان أهل هذا المكان أهل عبادة وورع وتقوى.

ومثل ذلك (مزورة) التي نعتت بها المقابر، فذلك يعني أن كثيرا من الصالحين واهل العلم والمعرفة قد دفنوا في هذا المكان وهؤلاء الصالحون يستحقون الزيارة فهم أهل فضل قد تركوا أثاراً طيبة في هذا المكان.

ان استعمال (الصفة والموصوف) في صورة الجمع دليل على الكثرة التي هي شاهد على ان هذا المكان معمور وجاذب.

واذا كان المكان في القصة يخضع إلى أحد أمرين: أمّا التعتيم بقصد او المبالغة في وصف التفاصيل فالحريري يقف موقفاً وسطاً في ذلك، وكل ما اراده من المكان في المقامة هو ان يكون مصدرا

دلالياً تتولد عنه معانٍ كثيرة.

ويمضي الحريري معرّفاَ بمدينته حتى يصل إلى زبدة الثناء فيقول:

« **و واها لمصركم، وان كان قد عفا، ولم يبق منه الا شفاً** »

وقد استعمل هنا (واهاً) وهي اسم فعل مضارع بمعنى (أعجبُ) ليعبر عن اعجابه بمدينته وهو اعجاب ممزوج بالمدح والاستحسان، فكأن الصفات التي اشار اليها هي موضع إعجاب ومحل استحسان،وكانت العرب تقول (واهاً) عند استطابة الشيء حتى كأن الحريري اراد أنّ يؤكد أن هذا المكان قد سجل حضوراً في التاريخ وقد أخذ مكانه بين صفحاته بجدارة وسيبقى التاريخ يعتز به ويشير اليه بأنامل الفخر حتى لو درس أو حصل له ما حصل.

وهكذا فالحريري يستند في تأكيد الوظيفة الدينية لمدينته إلى خلفية تاريخية تحمل كل ما ذُكر وقيل عنها، وهذا أمر لا يشعر به أهلها فقط، وإنما يخالط هذا الشعور زائري البصرة والمقيمين

بها من غير أهلها، وقد نُقل عن أحد قضاتها وهو محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى الكوفي (ت ١٤٨ هـ) أنه قال:

« **ما رأيت بلداً أبكر إلى ذكر الله من اهل البصرة** »[٢٢]

٢- الوظيفة الانتاجية:

لاشك أن الوظيفية الدينية لمدينة البصرة، وما رافقها من نهضة علمية تضعنا أمام حقيقة لا يمكن انكارها، هي أنّ هذا المكان يمتلك من المؤهلات ما جذب الناس اليه وشجعهم على العيش فيه، من ذلك – مثلاً – الموارد الاقتصادية التي مَنَّ الله بها عليه، وفي مقدمتها الموقع الاستراتيجي الذي كان له أكبر الاثر في تنشيط تجارتها وانعاش اقتصادها، فالطرق المائية والبرية المؤدية اليها جعلت قنوات الاتصال قائمة بينها وبين الكثير من بلدان العالم.

ولا يقتصر الامر على التجارة، بل أن هناك ظروفاً تهيأت لها لتكون أرضاً زراعية من الطراز الاول، فمنظومة المياه السطحية

تتألف من ثلاثة انهار كبيرة هي: دجلة والفرات وشط العرب، وما يتفرع منها من الجداول،وفي هذا الصدد ذكر ياقوت الحموي[٢٣] ان الجاحظ قال أن بالبصرة أعجوبة ليست في غيرها من البلدان هي:« **ان عدد الجزر والمدّ في جميع الدهر شيء واحد، فيقبل عند حاجتهم اليه، ويرتد عند استغنائهم عنه، ثم لا يبطئ عنها الا بقدر هضمها واستمرائها وجمامها واستراحتها، لا يقتلها عطشاً ولا غرقاً، ولا يغبها ظمأ ولا عطشاً، يجيء على حساب معلوم وتدبير منظوم،وحدود ثابتة وعادة قائمة** ».

وقد شاهد (ياقوت الحموي) هذا الامر بنفسه عندما زار البصرة في ثمان سفرات ووضح ذلك قائلاً:

« **ان دجلة والفرات يختلطان قرب البصرة ويصيران نهراً عظيماً يجري من ناحية الشمال إلى ناحية الجنوب، فهذا يسمونه جزراً، ثم يرجع من الجنوب إلى الشمال ويسمونه مدّاً، يفعل ذلك في كل يوم وليلة مرتين، فاذا جزر نقص نقصاناً كثيراً بيناَ، بحيث لو قيس لكان الذي نقص بمقدار ما بقي وأكثر، وليست زيادته متناسبة،**

بل يزيد في أول كل شهر ووسطه أكثر من سائره، وذاك انه اذا انتهى في أول الشهر إلى غايته في الزيادة،وسقى المواضع العالية، والاراضي القاصية، أخذ يمدّ في كل يوم وليلة من اليوم الذي قبله، وينتهي غاية نقص زيادته في أخر يوم من الاسبوع الاول من الشهر، ثم يمدّ في كل يوم أكثر من مدّهِ في اليوم الذي قبله، حتى ينتهي غاية زيادة مده في نصف الشهر ثم يأخذ في النقص إلى أخر الاسبوع، ثم في الزيادة إلى أخر الشهر هكذا أبداً لا يَخلف ولا يُخلف، ولا يخل بهذا القانون، ولا يتغير عن هذا الاستمرار» (٢٤)

هذا يعني ان هناك نظاماً إروائياً طبيعياً في مدينة البصرة يهّيء المياه للمزروعات فيها طوال السنة الامر الذي جعل تربتها مهيأة تماماً لأنتاج محاصيل زراعية متنوعة تناسب التنوع المناخي بين الصيف والشتاء.

وقد نُقِلَ عن أحمد بن اسحاق اليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ) قوله: ان بالبصرة « **نهراً يعرف بنهر الابلة، طوله اثنا عشر ميلا وهو مسافة ما بين البصرة والابلة وعلى جانبي هذا النهر قصور وبساتين**

ومخبئات ومتنزهات، كأنها كلها بستان واحد، وكأن نخلها قد غرس في يوم واحد، وجميع انهارها يدخل عليها المدُّ والجزر » [٢٥]

كل ذلك جعلها أرض سواد لا سيما في زراعة النخيل التي اشتهرت بها البصرة حتى اقترن اسمها بها فكثيراً ما تسمى بـ(مدينة النخيل)، وهذا من فضل الله على بلاد المسلمين، على ما اشار اليه أحد علماء اللغة البصريين وهو أبو حاتم السجستاني (ت ٢٤٨ هـ)الذي قال:

« **ومن العجائب ان مما أكرم الله به الاسلام ان النخل لا يوجد الا في بلاد الاسلام**» [٢٦]

وفي البصرة انواع من التمور لا توجد في غيرها من البلدان، فضلاً عن ان التمور البصرية من اجود انواع التمور وكان التجار يفدون إلى البصرة من كل انحاء الدنيا لشرائها.

فضلاً عن ذلك فهناك الاهوار المتصلة بالانهار،وهي مورد اقتصادي لصيد الاسماك والطيور ولأنبات الكثير من النباتات الطبيعية التي تدخل في كثير من الصناعات التي عرفت بها

البصرة.

ان للبصرة خصوصية اقتصادية ميّزتها عن غيرها، وجعلتها موضع فخر لأبنائها، ومما يذكر – على سبيل المثال – أن خالد بن صفوان التميمي المنقري (ت ١٣٣هـ) وهو من فصحاء العرب المشهورين دخل ذات يوم على عبد الملك بن مروان فراح يفخر بمدينته البصرة قائلاً:

« **يغدو قانصنا فيجيء هذا بالشبوط والشيم، ويجيء هذا بالظبي والظليم، ونحن أكثر الناس عاجاً وساجاً، وخزاً وديباجاً، وبرذوناً هملاجاً.....بيوتنا الذهب، ونهرنا العجب، أولهُ الرطب، واوسطه العنب، وأخرهُ القصب** » (٢٧)

وهو بهذا يشير إلى تنوع الثروة الحيوانية فالأسماك متنوعة والحيوانات البرية متنوعة أيضاً، كذلك إلى التنوع في الصناعات وانتاج الملابس وغير ذلك.

هذه الاسباب وغيرها جعلتها موضع استقطاب لطلاب العلم وللتجار وللزائرين، ومن فرط حب بعضهم لها أنهم مكثوا

فيها وتملكوا البيوت والاراضي حتى صارت لهم وطناً ينتسبون اليه، وفي هذا قال أحد الشعراء يصف البصرة، وهو ابن أبي عُيينة المهلبي المتوفى في أواخر العقد الثاني من القرن الثالث الهجري:[٢٨]

يا جنة فاقت الجنان فما يَعْدِلها قيمة ولا ثمنُ
ألِفتها فاتخذتُها وطناً إن فؤادي لمثلها وطَنُ

مع هذا فالوظيفة الانتاجية لا تنحصر في الجوانب المادية، وانما كانت البصرة مصنعاً معرفياً انتج الكثير من العلوم، وكما قال ابن بطوطة:

« **ولقد فتحت البصرة ابوابها أمام طلبة العلم منذ أن أصبحت هذه المدينة مركزاً مهماً من المراكز العلمية والحضارية في الوطن العربي والعالم الاسلامي، فاستقبلت معاهدها الوافدين من مختلف اقطار الدنيا، واحتفل بهم أهلها وقدموا لهم العون بما عُرف عنهم من مكارم الاخلاق والقيام بحق الغريب** »[٢٩]

هذه الحقائق التاريخية والجغرافية قد وعاها الحريري ووظفها في مقامته البصرية في صورة مقتضبة ليضع الدال متلقيه على جسر

من التواصل بين الحاضر والغائب بمعنى ان هذا الاقتضاب يدفعنا إلى ان نتعرف إلى تاريخ ذلك المكان الذي ينتسب اليه الحريري.

ومما اشارت اليه المقامة البصرية عن المكان هو: «**بلدكم أوفى البلاد طهرة...، وافسحها رقعة، وامرعها نجعة...،وأوسعها دجلة، واكثرها نهراً ونخلة، واحسنها تفصيلاً وجملة**»

هذه الاشارات المقتضبة تأكيد للمؤهلات المكانية التي ساعدت في ان يؤدي هذا المكان وظيفته الانتاجية في أحسن حال، فأرضُ البصرة ذات امتداد واتساع لم تقمعها حدود أو حواجز بمعنى انها منفتحة على كثير من المدن مما جعلها مكاناً جاذباً.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن هذه الارض الواسعة لم تكن بواراً،بل هي أرض خصبة صالحة لأنتاج الكثير من المحاصيل الزراعية، وهي (نُجعة) أي موضع يُطلب فيه الكلأ، وهذا دليل على خصوبتها، كما ان هذا يوحي بأن لها وظيفة

سياحية فهي صالحة لأن تغدو منتجعاً جميلا للسياح.

إن مرور دجلة بأرض البصرة والتقاءه بنهر الفرات عليها ثم مرورهما عبر شط العرب إلى البحر لهو الامر الاخر الذي أعطى هذا المكان أهمية بين الاماكن، بل صار أكثرها نخلاً.

ان هذه الميزة التي ميز الله بها البصرة ليست هي الوحيدة وهو ما أشار اليه الحريري على لسان بطله أبي زيد السروجي، ولعل هذا يوحي بامرين.

الاول: ان الوظيفة الانتاجية لهذا المكان لا تقتصر على نوع واحد بل هناك تنوع في الانتاج ترتب عليه تنوع في المهن والصناعات.

الثاني: ان البصرة مكان سياحي يرتاده الكثيرون على اختلاف اهوائهم ومشاربهم.

كل هذا يستشف من قوله:

« **وبه يلتقي الفُلكُ والرّكاب، والحيتان والضّباب، والحادي والملاح، والقانص والفلاح، والناشب والرامح، والسارح**

والسابح، وله اية المدّ الفائض والجزر الغائض »

هذا كلّهُ يعطي الدليل على تنوع الحياة على أرض البصرة وتعدّد سبل العيش فيها، فهي ملتقى السفن وقوافل الإبل لأنها على شط دجلة من جانب وعلى البادية من الجوانب الاخرى، وهذا التنوع أدى إلى أن تتنوع المهن وتنتعش الحياة الاقتصادية في البصرة، فهناك القانص الذي يصطاد في الفلاة، وهناك صاحب النشّاب وصاحب الرمح، وقد اجتمع في هذا المكان السارح الذي يسرحُ إلى المرعى، والسابحُ الذي يسبح في النهر.

كل هذا يدل على ان الحياة في المكان البصري حياة متحركة كلها نشاط وحيوية وعطاء.

ثانيا: الانسان البصري

قد يدخل منتج النصّ الأدبي (لا سيما النص السردي) في منافسة مع المؤرخ الذي يكتب عن واقع الناس ومسار حياتهم في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها، لكنها منافسة لا تجعل الاديب بديلاً عن المورخ، وانما تضع عناصر التاريخ ومكوناته ضمن دائرة الاثراء والمنفعة ليتسنى للأديب بلورتها في نصوصه، فتبدو مخضلة بالاناقة والجمال.

واذا كان كاتب القصة لا يتمكن أحياناً من إقناع قارئه (الذكي) بأن شخصياته تمثل الواقع بصدق، فقارئ المقامة مهما علت ثقافته فهو على ثقة عالية بان الشخصيات التي يتحدث عنها الحريري تمثل الواقع البصري حقاً.

لقد وصفت المقامة البصرية النموذج البشري (البصري) وصفاً يليق به، وبإنتمائه إلى مكان له تفردّه الحضاري، وتميّزه التاريخي.

ان الحريري يقدم لقارئه شخصيات أدخل لمساته الفنية في صنعها واشخاصاً هم أبناء مدينته، وكأنه في ذلك اراد أن يعزز نقاط التلاقي بين الادب والتاريخ، لذا فهو حين يقدم شخصياته فإنما يضعها في سياق الادب، لكنه عندما يقدم مجتمعه فإنه يضعه في سياقي الادب والتاريخ.

هنا يمكن القول أن النص المقامي هو من قبيل الادب المعرفي لأنّه يقدم لنا أدباً وفي الوقت نفسه يقدم لنا تاريخاً وهو على ما يبدو منفلت من الادبية المحضة،ومتعال على الواقعية الفجة.

ان هناك شخصيتين رئيستين في المقامة تقوم كلٌ منهما بتقديم معلومات مهمة للمتلقي، لأنهما شاهدان على ما يروى من الوقائع والاحداث بل هما مشاركان فيها لأنهما يحملان الهوية نفسها التي يحملها المخاطبون (اهل البصرة) بمعنى انهما يحملان الصفات والفضائل التي يتميز بها البصريون وهاتان الشخصيتان هما: شخصية (الحارث بن همام) وشخصية (أبي زيد السروجي).

وقد أعطى الحريري صفة الراوي إلى (الحارث بن همام) على

حد إشارته في خطبة كتاب المقامات:

« **وقد أسندت روايته إلى الحارث بن همام البصري** » ولم يرُد العَلمية من هذا الاسم وانما قصد الصفة لأن معنى (الحارث) هو الكاسب، والهمام يعني الكثير الاهتمام والظاهر انه أخذ هذا الاسم من حديث للرسول ﷺ يقول فيه:

« **كلكم حارثٌ وكلكم همّام** »

وقد أراد الحريري بذلك نفسه واما أبو زيد السروجي فهو شخصية بصرية يعرفه الحريري حق المعرفة وقد ذكر القفطي في تاريخ النحاة: ان ابا زيد السروجي اسمه مطهر بن سلار، وكان بصرياً لغوياً، صحب الحريري، وتخرج به، وهذا يعني ان بطل المقامة لم يكن من صنع خيال الحريري وانما هو شخصية بصرية تملك من المواصفات ما أهلها لأن تكون قناة توصيل للمقامة إلى متلقيها والى هذا اشار الحريري في خطبة الكتاب قائلاً:

« **وانشأت...خمسين مقامة تحتوي على جدّ القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الادب ونوادره،**

إلى ما وشحتها به من الايات، ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الامثال العربية، واللطائف الادبية، والاحاجي النحوية، والفتاوى اللغوية،والرسائل المبتكرة، والخطب المحبرة، والمواعظ المبكية،والاضاحيك الملهية، مما أمليت جميعه على لسان أبي زيد السروجي ».

ان الدور الذي يؤديه السروجي في المقامة دور كبير لا يتجلى في المكتوب وحده بل في المسكوت عنه الغائب عن النص أيضاً.

إن ما اراد الحريري قوله على لسان بطله يمثل نقداً لاذعاً للأوضاع السائدة وقتذاك، فالحاكم السياسي قد تراجع عن دوره الاساس في خدمة المكان والانسان ولم يعد خطابه السياسي يتجاوز حدود الذات لذا فإن حرمانه من كرسيه سيفقده الكثير مما كان يطمع فيه.

ولا شك ان هذا التراجع السياسي قد رافقه تراجع اقتصادي واخر اجتماعي، وكل ذلك يلحق ضرراً بالثقافة التي صار لزاماً عليها ان تدافع عن نفسها وان تصمد ولا تتراجع.

لقد كانت المقامة رسالة ثائرة بقوة على تردّي الاوضاع وقتذاك، وهي لم تكن نصاً متدنياً، وانما هي نصّ يحمل كل سمات وخصائص الادب العالي الرفيع، وهي بذلك المستوى تستطيع ان تؤثر وتستثير و تحفز الانسان على الثورة،وعلى العمل الدؤوب لتخطي المحن،ولا نغالي اذا قلنا ان المقامة نص مبطن بالثورة وبالتحريض على التجاوز والتخطي، لذا فقد تمكن الحريري على لسان بطله ان يُضحك ويُبكي ويَحضّ ويُثري ويُعلّم ويدفع متلقيه بعد أن يسمع الخطاب لأن يدفع المال عن قناعة ورضا، لذا فقد حفلت المقامة بالتنوع الاسلوبي لتفعيل التلقي كما يقول الحريري:

« **وما قصدت بالاحماض فيه الا تنشيط قارئيه،وتكثير سواد طالبيه**»

وفي الاحماض استعارة جميلة من الواقع لأن الكلمة مأخوذة من إحماض الابل، أي: انتقالها من مرعى نبات حلو إلى مالح، وقد تضمنها كلامه للدلالة على انتقاله من اسلوب إلى أخر.

مع هذا فالمال لم يكن غاية قد تدعو إلى ان يذل الانسان نفسه

من أجلها، وانما هو وسيلة أدخلها الحريري في المقامة لتحقيق الكثير من المقاصد، منها تأكيد أهمية المال للمجتمع وللثقافة إذ لا شك انه وسيلة فاعلة لإنعاش المجتمع وتنشيط الثقافة.

فضلا عن ذلك فإن ادخال عنصر المال في المقامة يُعدّ صورة من صور النقد لبعد المسافة بين السلطة والمثقف، إذ من المفترض ان يكون المسؤول في خدمة الثقافة ولا يكون مُدبراً عن القلم وصاحبه الامر الذي دعا الانسان العادي إلى ان يأخذ دوره ليكون هو الرافد الذي يمدّ المسار الثقافي بما يضمن استمراريته وعدم توقفه.

في ضوء ذلك يمكن ان نفسر انتقال المقامة من المكان إلى الانسان لتؤكد تلازمهما، وان كلاً منهما يأخذ المزية والفضل من الاخر.

إن (المكان والانسان) تتبادلان الادوار بحسب الوظائف التي يؤديها كل منهما في المقامة البصرية،فإذا كانا متضايفين تتجه القصدية إلى المتقدم منهما لأن (المضاف) هو مدار الحديث،أما

(المضاف اليه) فلا يكون أكثر من محدّد أو مخصص دلالي.

وبما ان بنية المقامة تقوم على ثنائية (المكان والانسان) فالحديث عن أحدهما يجري في اطار اضافته إلى الاخر.

١- الانسان	المكان
↓	↓
يـا اهل	البصرة
٢- المكان	الانسان
↓	↓
بَلـد	الضمير (كُمْ)

وبعد أن تبينت القيمة العالية للمكان، ستَتبيّن هنا قيمة الانسان ودوره أو أثره في مجتمعه أو في الوجود البشري.

لقد جرى الحديث عن الانسان البصري في أربع مراحل وقف عندها البطل في مواضع معينة في النص، ولكل واحدة منها بنياتها الدالة، وكما هو مبين في ما يأتي:

١- المرحلة الاولى:

سبقت هذه المرحلة الحديث عن المكان، واستندت إلى بنيتين دالتين: الاولى بنية الدعاء وهي ضرورة توحي بمحبة الداعي لمن يدعو له، وهذه حقيقة تستوقفنا تجلياتها في حديث أبي زيد السروجي الكاشف عن المزية والفضل لمدينته التي يكاد يؤسس لدى الاخرين إغراء وتشويقاً لها.

فضلا عن هذا فالدعاء يوحي أحياناً ان هناك ظرفاً قاهراً ومعاناة اليمة يعيشها الانسان البصري وقتذاك لما يحصل في واقعهم من انحدارات سياسية واقتصادية وما يرافقها من اختلال في الموازين وضياع في القيم.

والدعاء على ما يبدو يستمد عناصر تكوينه من التاريخ استجابة لما تنويه الكلمات من توثيق الصلة بين المتلقي والاحداث.

وقد جاء النصُّ الدعائي قصيراً وكلما ازداد الكلام ايجازاً اتسع الايحاء، لذا فقد انبنى من ثلاث جمل قصيرة قوّت الصلة بينها واو النسق للإيحاء بتلازم مضامينها الثلاثة:

(الحفظ – الوقاية – القوة)

↓ ↓ ↓

«وعاكم الله ووقاكم وقوى تقاكم »

والوعي في اللغة: الحفظ، وحفظ القلب الشيء، تقول: وعى الشيء أو الحديث يعيه وعيا وأوعاه: حفظه وفهمه[٣٠].

ان هذا التعبير (وعاكم الله) يلوح بالامل والتفاؤل بالاستجابة، لأن الداعي يتمنى ان تكون حقيقة هذا الانسان معروفة ومحفوظة عند من يتجهّ اليه الدعاء، وبهذا يتأكد قرب هذا الانسان من الله سبحانه وتعالى،ولا فرق في ان تكون هذه الكلمة (رعاكم) كما ورد في بعض الكتب، ولا شك ان الانسان المحفوف برعاية الله لا يكون بعيداً عن رحمته.

بعد ذلك ياتي المطلب الثاني وهو (الوقاية) التي يوحي طلب تحققها ان هناك مشاكل ومصاعب ومحناً يتمنى الداعي ان يصون الله أهل البصرة منها ويقيهم شرها.

واذا كانت هناك مصائب فلابد ان يكون هناك صبرٌ عظيم، وهذه من صفات المتقين، لهذا جاء المطلب الثالث (وقوى تقاكم)

ولم يقل (ايمانكم) لان التقوى اعلى مراتب الايمان، وهو لم يدع لهم بالتقوى، وانما بتقوية التقوى ليوحي أنهم كانوا تقاة وطلب تقوية التقوى هو طلب بالاستمرار عليه، وبالتواصل في الاستزادة منه فتلك صفة عظيمة نعت الله اصحابها بالمفلحين.

أما البنية الدالة الثانية فهي بنية التميز والافضلية التي أكدت ان لهؤلاء المخاطبين ذكرا جميلاً ما انفك يدور وينتشر بين الناس مثلما تنتشر أو تضوع الرائحة الذكية الطيبة، وقد جاء ذلك في سياق التعجب للدلالة على كثرتها وعظمتها.

« **فما أضوع ريّاكم** »

ثم عطف عليها « **وافضل مزاياكم** ».

والافضلية هنا تثير العجب في (المزايا) وهي المناقب التي يتميز بها صاحبها على غيره.

٢- المرحلة الثانية:

أعقب هذه المرحلة الحديث عن (المكان) لتحقيق وظيفة تداولية للخطاب، فهناك - على ما يبدو - قصدية، وهناك

مُضمنات لم يصرح بها فعل الكلام، ذلك ان الحديث عن المكان قبل الانسان يثير عند المتلقي احساسا بأهمية المكان لأن في ذلك أيضاً إحساساً بالمواطنة وبالتاريخ، حتى كأن حصول أي شيء لا يمكن أن يكون بدون ذلك الكيان.

من هنا كانت انتقالة الخطاب صوب الانسان قد بدأت بـ(وأما أنتم....) وكأنه اراد أن يقول: (هذا مكانكم، وأما أنتم...).

واستعمال (أما) متبوعاً بضمير الخطاب (انتم) يؤسس فعلاً كلامياً تداولياً يتحقق التواصل في سياقه بشكل مؤثر، فـ (أما) حرف شرط يفيد التوكيد وينشئ مع ما يتبعه من كلام بنية دالة تُبين أن ما سيأتي في هذا السياق متعلق بـ (أنتم) وفي الوقت نفسه يكون مؤكداً دون أدنى شك.

وبدأ السروجي بعد ذلك يعدد مناقب أهل البصرة قائلاً:

« **واما انتم فَمِمّنْ لا يختلف في خصائصهم اثنان، ولا يُنكرها ذو شنان، دَهْماؤكم أطوعُ رعيةٍ لسلطان، وأشكرُهم لإحسان، وزاهِدُكم أورعُ الخليقةِ، وأحسنُهم طريقةً على الحقيقةِ وعالمكُم**

علامةُ كلّ زمان، والحُجَّةُ البالغةُ في كلّ أوان،ومنكم من استنبَطَ علمَ النحوِ ووضعَهُ، والذي ابْتَدَعَ ميزانَ الشعرِ واخْتَرَعَهُ، وما من فخرٍ إلّا ولكم فيه اليدُ الطُّولى، والقِدْحُ المُعلّى، ولا صيتٍ إلّا وانتم أحقُّ به وأَولى، ثم إنكم أكثرُ أهلِ مِصْرٍ مؤذنين، وأحسنُهم في النُّسْكِ قوانين، وبكم اقتُدِيَ في التعريف، وعُرِفَ التّسحيرُ في الشهرِ الشريف، ولكم إذا قرَّتْ المضاجعُ، وَهَجَعَ الهاجعُ، تَذْكارٌ يُوقِظُ النائمَ، ويُؤْنِسُ القائم، وما ابتسمَ ثَغْرُ فجرٍ، ولا بَزغَ نورُهُ في برْدٍ ولا حرٍ، إلّا ولتأذينِكُم بالأسحار، دويٌّ كدَوِي الريح في البِحار، وبهذا صَدَع عنكم النَّقلُ، وأخبرَ النبيُّ ﷺ من قَبْلُ، وبَيَّنَ أنّ دَوِيَّكُم بالاسحار كدوي النّحل في القِفار، فشرفاً لكم ببِشارةِ المصطفى، وواهاً لِمِصْرِكُمْ وإنْ كان قد عَفَا ولم يَبْقَ منهُ إلّا شَفا»

ان البصريين – على ما بينته المقامة – أصحاب فضائل يعرفها الجميع ولا يختلف فيها اثنان، بل لا ينكرها حتى الاعداء فكأنه اراد ان يقول: « والفضل ما شهدت به الاعداء »

أمّا قوله: « **دهماؤكم أطوع لسلطان** »فهو أمر يحتاج إلى تدبر

لأنه لم يبين المقصود بـ (سلطان)، ومن المعروف أن (السلطان) في اللغة يعني: الحجة والبرهان، قال تعالى:

﴿ **لقد ارسلنا موسى باياتنا وسلطان مبين**﴾. (هود:٩٦)

أي: وحجة بيّنة، والسلطان انما سمي سلطاناً لأنه حجة الله في أرضه، والغالب في المقامة أن المقصود به (الحاكم) وقد ذهب بعضهم إلى ان ما عناه الحريري هو طاعتهم لعائشة والزبير وطلحة عندما خرجوا في حرب الجمل ضد الامام علي ﷺ واذا صحّ ذلك، فهذا فهم متأتٍ من فهمٍ مجانب للصواب لخطبة للأمام علي ﷺ خاطب بها جمعاً من أهالي البصرة،قال فيها:

«**كنتم جند المرأة، واتباع البهيمة، رغا فأجبتم، وعقر فبُهرتم**»[٣١] فهذه حتماً توحي بطاعة عمياء غير مدروسة ولا مستندة إلى معقولية،أو تفكير سليم، وانما هي اندفاع عاطفي أدى إليه الخداع والخوف أو الاغراء بالمال، وهذا امر لم يحصل للبصريين جميعهم، وانما لجماعة غرّر بهم فخرجوا عن الطاعة، وقد بين أمير المؤمنين ﷺ ذلك في قوله:

« أتى طلحة والزبير وعائشة البصرة واهلها مجتمعون على طاعتي وبيعتي، فمن أطاعهم اكفروه، ومن عصاهم قتلوه »[٣٢].

هذا القول يؤكد ان هناك الكثير من البصريين قد اطاعوا الامام عليه السلام وقاتلوا معه، اما خطابه « كنتم جند المرأة....» فقد فهمه بعضهم انه ذمّ لأهل البصرة، مع انه في حقيقته ذمّ لأولئك الذين حاربوه والدليل على ذلك ان الخطاب كان موجهاً إلى من وقعوا في الاسر بعد انتهاء معركة الجمل، وبهذا فهو ذم للخارجين عن طاعة حاكم المسلمين وخليفتهم الامام علي عليه السلام.

ومما يؤكد ذلك تذكيرهم بقول الرسول صلى الله عليه وآله الذي اشاد فيه بمدينتهم وبمن يشغلها من المسلمين وكأنه عليه السلام أراد ان يقول لهم: كيف تخرجون على طاعتي وانتم اهل مكان مشهود له بالفضل والمزّية.

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فإن عائشة والزبير وطلحة لم يكونوا حكاماً وانما كانوا فئة تمردت وخرجت على حكم الامام الذي هو حجة الله في أرضه، ثم ان البصريين عندما تبينت لهم

الحقيقة التحقوا بركب الامام ﷺ وكانوا اطوع رعية له.

ولو اخذنا اللفظ على عموم دلالته فهذا ليس بمقبول لان هناك من يتسلط على رقاب الناس فيصبح طاغية زمانه، والبصريون معروفون بتمردهم على الطغاة وفي التاريخ شواهد كثيرة على ذلك.

ومع هذا فمن الممكن الافادة من مدلول اللفظ اللغوي وهو الحجة والحريري لم يستعمل لفظ الملك او الخليفة او الامير وانما استعمل (السلطان) وقد أستعمله نكرة ولعله أراد به السلطان العادل الذي ينطبق عليه مفهوم (حجة الله في أرضه)، والمقامة البصرية على ما يتبين لم تذكر أسماء معينة الا ما ندر وان كان هناك من فسر بعض العبارات بأنها تخص أناساً معينين لكن الحديث على ما يبدو على صلة بالبصريين عامة ولا يخص طائفة معينة.

ان ما يمكن ان يشار اليه هنا هو ان المقامة في حديثها عن الانسان البصري كانت تنتقل من العموم إلى الخصوص لأفادة الشمول ولتبين ان موضوعها متعلق بالمجتمع البصري ككل،

فكلمة (دهماء) تدل على الكثرة والعموم، واما قوله (زاهدكم.... عالمكم...) فهو خاص، ويزداد الامر خصوصية عندما يشير إلى أبي الاسود الدؤلي واضع حجر الاساس للنحو العربي بعد ان أوعز اليه الامام علي عليه السلام بأن يضع للناس هذا العلم وكذلك اشار إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي أسس أوزان الشعر ولعله اراد بذلك ان يؤكد حقيقة مهمة هي ان الانسان البصري كان له الفضل في تأسيس الكثير من العلوم والمعارف، فأول معجم عربي ظهر إلى الوجود هو معجم العين، وان قوانين النحو وقواعد اللسان العربي كانت من صنع البصريين فضلاً عن علم العروض الذي موسقت به البصرة شعر العرب.

ان ما ارادت تأكيده المقامة البصرية هو ان للبصرة الريادة في الكثير من العلوم وفي الكثير من الجوانب الحضارية.

« **وما من فخر الا ولكم فيه اليد الطولى، والقِدْح المعلى،ولا صيتٍ الا وانتم أحق به واولى** ».

ويمضي أبو زيد السروجي في حديثه الذي خص به أهل

البصرة بعد أن وجدهم أهلاً للثناء، فهم نموذج إنساني يستلزم الثناء، ويستوجب الدخول في صفحات التاريخ بكل ثقلهم المعرفي وتميزهم الحضاري.

ان بطل المقامة في حديثه عن المجتمع البصري يضع نفسه في رحلة استكشافية تهتدي بالفنارات المتلالئة على ضفاف شط العرب لأرشاد المبحرين في تاريخ هذه المدينة.

ان اهم ما يؤكده في حديثه هو ان القاعدة الايمانية ومخافة الله والتوجه الصادق اليه هو اساس النجاح في الحياة،فالبصريون قدوة لغيرهم في حب الله والتقرب اليه، وهناك شواهد كثيرة على هذه الحقيقة منها كثرة مساجدهم، وما لهم من عادات عبادية وخصوصيات في اداء المناسك.، يُقتدى بها، منها تعظيمهم ليوم (عرفة) فما ان بقف الحجيج هناك، يجتمع البصريون في المساجد، ومنهم من يذهب إلى الصحراء للدعاء والاستغفار تشبيها بما يفعله الحجاج في يوم عرفة.

وفي الشهر الشريف شهر رمضان يستيقظون للسحور، ولهم

في الليل اذكار، وان هذا التذكار يؤنس القائمين المتهجدين في الليل.

هذا هو شأنهم في الليل، وعند بزوغ الفجر لهم مناسك في الاسحار ولهم دوي كدوي الريح في البحار.

انهم اهل عبادة واهل تقوى واهل علم، لهذا فهم صادقون في نقل الاخبار، وروايتهم موثوق بها.

هذا يعني ان لهم باعاً طويلاً في كتابه التاريخ، وان التاريخ المنقول عنهم لا يُشكّ فيه.

لقد ذكر الحريري هذه الصفة أي (نقل الاخبار) بعد ان ذكر فضائل الانسان البصري ومحامده وكأنه يريد ان يقول ان الخبر المنقول عن هؤلاء يُطمأن اليه ولا سيما في رواية الحديث النبوي الشريف، وفي ذلك اشارة في الوقت نفسه إلى ان هناك من يحرف التاريخ ويلوي الاخبار مثلما حصل مع آل بيت الرسالةﷺ فقد اضاع التاريخ الكثير من اخبارهم – عن قصد – وربما قام بعضهم بفعل المال والتزلف إلى الطغاة بتحريف حقائق التاريخ

واهل البصرة ليسوا من هؤلاء.

ان ما يجب ان يحمله المؤرخ هو العلم والايمان وأن « رأس الحكمة مخافة الله».

٣- المرحلة الثالثة

توقف ابو زيد السروجي عند هذا الحد من الثناء والإطراء على الانسان البصري – على ما تبين في المرحلة الثانية – ثم انتقل فجأة إلى المكان ليقول: « **وواهاً لِمصركم وإن كان قد عفا، ولم يبق منه الا شفا** »

إن المفردتين (عفا) و (لم يبق) تمثلان مساراً سرديا جرى التركيز فيه على الحدث، وفي الوقت نفسه على الوصف، لكن باقتضاب شديد، لكي تكون اللغة سيدة الموقف فتبدع في التعبير عما يختلج في داخل البطل.

ان الفعلين (عفا) و (لم يبق) مهيجان، ومثيران للشجن،فالاول يوحي بالاندراس والامحاء، يقولون: عفْت الريح الاثر، أي:

درسته ومحته، ومثل ذلك في قوله: « ولم يبق منه...» فذلك يوحي أيضا بالذهاب والاندراس، والسروجي – فيما يبدو – أراد ان البصرة تبقى معطاءة، وتبقى منبعا للفضل وللفضيلة حتى لو حلت بها المصائب واصابتها الكوارث،وان الانسان البصري لن يتراجع عن مهماته في العطاء والاحسان حتى في أحلك الظروف واشدها قسوة.

ان البطل بعد ان تحدث بهذا الحديث الموجز انتابه الصمت،وبدا عليه الاسى، وراح الراوي يضعنا امام مسار سردي ينضوي تحته الوصف في براعة تصويرية تنضح بالجمال، وكما يقال: « **إن الوصف ابن اللغة، والاناقة التعبيرية ابنتها، والمكونات الاسلوبية مظهر من مظاهرها وثمرة طيبة من ثمارها** » [٣٣].

كل ذلك نتلمسه فيما وصف فيه الراوي أبا زيد السروجي:

« **ثم انه خزن لسانه وخطم بيانه، حتى حُدج بالابصار، وقُرِف بالاقتصار، ووُسم بالاستقصار، فتنفس تنفس من قِيدَ لقود، او ضَبَثْتْ به براثن أسدٍ** »

هكذا ينتقى الراوي من محور اللغة الاستبدالي أجمل ما يمكن أن يقدمه لمتلقيه، فلم يقل: (سكت)، بل قال: (خزَنَ لسانه). هذه الكلمة وردة تفتحت في حقل النص لتحرك خيال السامع،فالبطل حبس كلامه، وكفّ لسانه عن النطق، والخزن يقترن كثيراً بالاشياء الثمينة، لذا لم يقل (خطم كلامه) وانما قال: (خطم بيانه) لكي يؤدي الوصف وظيفته متعاضداً مع السرد، فالذي أمسك عنه الكلام هو الكلام البليغ الجميل الذي يحقق تواصلاً واتصالاً اجتماعياً، هو الكلام الذي يحتاجه الاخرون وان الكف عنه يبعث على الالم والقلق، لذا فقد (حُدِجَ بالابصار) أي ان الجالسين قد نظروا اليه بحدة واستغراب، فلماذا هذا الصمت !؟ اهو قصور عن التواصل مع الغير أم هو قصورٌ في ادوات التعبير ؟ كيف هذا وهو اللغوي المبدع المتمكن من التصرف في القول ؟ واسئلة اخرى مبعثها الدهشة، وهي دهشة نابعة من حب جمهور التلقي له، ومن استعذابهم لكلامه عن البصريين.

وراح الراوي يصف البطل وصفاً جميلاً متخيَّلاً، إذ شبههُ بمن

اقتيد للقتل أو بمن نشبت به مخالب الاسد.

إذن فما الداعي الذي جعل البطل يعيش هذه الحالة من الغم والصمت ؟

من المؤكد ان لدى البطل معلومات عما سيحل بالبصرة من المحن، لكن من أين له هذه المعلومات ؟ هل هي من صنع الخيال بما يشبه التقنية السردية التي تشد السامع ؟ هل استند إلى التاريخ وما تنبأ به اهل العلم والدراية ؟

أغلب الظن انه استند إلى ما تنبأ به الامام علي ﷺ بما سيصيب البصرة من الفتن والكوارث من ذلك قوله مخاطباً اهل البصرة في معركة الجمل: « **كاني أنظر إلى قريتكم هذه قد طبقها الماء، حتى ما يرى منها الا شرف المسجد كأنه جؤجؤ طيرٍ في لجة بحرٍ** »[٣٤].

وقد تنبأ الامام علي ﷺ بما سيقع في البصرة من الفتن فقال: « **فتن كقطعِ الليل المظلم، لا تقوم لها قائمة، ولا ترد لها راية، تأتيكم مزمومة مرحولة يحفزها قائدها، ويجندها راكبها، اهلها قوم شديد كلبهم، قليل سلبهم، يجاهدهم**

في الله قوم أذلة على المتكبرين، في الارض مجهولون وفي السماء معروفون فويل لك يا بصرة.....» (٣٥)

ومهما يكن فإن للصمت الذي انتاب البطل مسوغاته، لكنه عاد بعد ذلك ليؤكد ما بدأه عن الانسان البصري وعما له من مكانة في التاريخ، وكل ذلك قد جرى على لسان الراوي الذي كان يتحدث بضمير الغائب وهو الايسر استقبالا لدى المتلقي لاسيما ان هذا الضمير يشيع استعماله بين السّراد الشفويين.

وراح الراوي يتوارى وراء هذا الضمير ليمّرر ما يريد تمريره دون ان يكون له تدخل في الاحداث، بل هو يقف خلفها ليبدو ملماً بها، خبيراً بتفاصيلها...

لقد اعطى الراوي للأحداث تسلسلاً ينسجم مع مسار الزمن مع وجود شيء من التراخي بين حدث واخر:

« **ثم خزن لسانه.....ثم قال.....»**

والراوي بهذا يوقفنا في أربع محطات ترينا كل واحدة منها حالا من أحوال البطل وكالاتي:

الثناء ⟵ التذكر ⟵ الموقف ⟵ الثناء

واذا كان الثناء في المرحلة الثانية قد بدأ في شيء من التفصيل فالثناء في هذه المرحلة بدأ في عبارة موجزة تناسب الموقف لأن المهموم لا يطيل الكلام عادة ولذا اقتصر كلامه على القول:

« **أما انتم يا اهل البصرة فما منكم الا العلم المعروف ومن له المعرفة والمعروف** »

هذه هي الهوية التي ارادت المقامة تثبيتها ووضعها في صفحات التاريخ لتكون موضع فخر للأجيال، وهي هوية قد تعاضد فيها أمران أساسيان فيهما صلاح الوجود وسرّ تقدم الانسان وهما (المعرفة والمعروف) أي (العلم والاحسان).

٤ - المرحلة الرابعة

يبدو ان البطل في ثنائه على المكان والانسان البصريين كان يمهد لتحقيق واحدٍ من اهم مطالبه، وهو التوبة والمغفرة من الله سبحانه وتعالى لكن توجهه للباري لم يكن مباشراً، وانما استعان بأهل الفضل لأنهم أقرب اليه منه للشفاعة له عند غفار الذنوب

الرحمن الرحيم.

هنا تتجلى تقنية السرد وبراعة التعامل مع الحدث، اذ لابد من المقارنة ولابد من الانتقال بين الضمائر، لذا فقد بدأ البطل بالثناء على المكان أولاً وعلى شاغليه ثانياً ثم انتقل للحديث عن نفسه:

« **أمّا أنتم يا أهل البصرة.....**

واما أنا.....»

هناك اذن زوايا متعددة للنظر إلى الحديث في المقامة، وقد عبرت الضمائر عنها (الغائب – المخاطب – المتكلم).

ويأتي المتكلم لإغلاق المشهد بإحالة البطل إلى ذاته، لأن الـ(أنا) مرجعيته جوانية.....، هنا تتعمق الصلة بالتاريخ، اذ يجري الحدث عن السيرة الذاتية للشيخ السروجي على لسانه كاشفاً لجمهوره اسرار حياته:

« **أنا الذي أنجد واتهم، وايمن وأشام، وأصحر وأبحر، وادلج وأسحر.....**»

إن ضمير المتكلم « يستطيع التوغل إلى اعماق النفس البشرية

فيعريّها بصدق ويكشف عن نواياها بحق، ويقدمها إلى القارئ كما هي».

لقد بدأ السروجي بعد ان انتهى من الحديث عن الانسان البصري بالحديث عن نفسه كاشفاً عن كل حسناتها ولم يُخفِ ما فيها من الهنات وما وقعت فيه من الاخطاء لذا فهو يتحدث هنا عن شجاعته وعن رحلاته في كثير من الامكنة والبلدان، وليبين لنا ان له خبرة ومعرفة بالاماكن، وله فضائل في الاوساط الاجتماعية، فهو يمتلك من الوسائل والخدع التي تدفع البخيل إلى ان يجود بالمال، ويحاول ان يؤكد صفاته ويزرع القناعة عند متلقيه بما يقول،لذا يطلب لمن يشك في كلامه أن يستوضح الحقيقة من الرواة.

« **واستوضحوني من نقلة الاخبار، ورواة الاسمار وحداة الركبان، وحذاق الكهان، لتعلموا كم فج سلكت، وحجاب هتكت، ومهلكة اقتحمت، وملحمة الحمت، وكم ألباب خدعت، وبدع ابتدعت، وفرص اختلست، واسد افترست، وكم**

محلق غادرته تقى، وكامن استخرجته بالرقى، وحجر شحذته حتى الضرع، واستنبطت زلاله بالخدع ».

ان المقامة البصرية تضعنا امام منهج علمي مفاده ان الوصول إلى الحقائق ينبني على مبدأ الشك، وعلى السعي لإزالة الشك، لعل ذلك المنحى كان مهماً في ذلك الوقت الذي كانت تعيش فيه البصرة، فلابد من التثبت والتأكد من الاخبار.

ان الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية قد تصل في حالة من حالات التدهور لأن ينزلق الانسان وان تنقلب الموازين فيصبح الصحيح سقيماً، والمستقيم معوجاً.

ان السروجي كشف سيرته الذاتية بما يدعو إلى الفخر في بعض الجوانب، وبما يدعو إلى الندم في جوانب اخرى، فهناك سلوكيات قد مارسها ولم تكن محببة اليه، ربّما تناغم معها الناس لأنهم لم يتعرفوا إلى حقيقتهِ.

ان الخطأ مهما كان بسيطاً فهو خطأ، وعلى المرء ان يعترف بأخطائه وان يحاسب نفسه عليها فتلك فضيلة يثاب عليها.

لقد ارتكب السروجي هذه الاخطاء من كذب وخداع في أيام شبابه ولعل ادانته هذه لنفسه إدانة للأوضاع المتردية التي كانت تعيشها مدينته والتي أدت بالانسان إلى ان يمارس سلوكاً غير مقبول، ولطالما لجأ المرء إلى ذلك من أجل الحصول على المال لاسيما عندما تقسو معه الظروف فلا يجد معها ما يشبع به أطفاله.

ان للدينار حسنات وله سيئات ذكرها الحريري في مقامته الدينارية فهو يقول في مدح الدينار:

ومترفٍ لولاه دامتْ حَسرتُهْ وَجيشِ هَمّ هزمتهُ كرَّتُهْ

وفي ذمه يقول:

تباً له من خادعٍ مُماذِقْ أصفرَ ذي وجهين كالمُنافِقْ

فهو هناك مصدر للرفاهية والسعادة، وهنا مخادع لا يصافي الودّ لأن له وجهين.

لقد ذكر الحريري في مقامته البصرية كلّ الفضائل والقيم التي تميز بها البصريون ليصل إلى غاية هي ان هؤلاء في هذا المكان بالذات إذا طلبوا من الله شيئاً فإنه سبحانه سيستجيب لهم لأن

لأولي الفضل منزلة عند الله، فضلاً عن ان المكان البصري مؤهل لاستجابة الدعاء لكثرة ما فيه من الجوامع وما فيه من المزارات والمشاهد والاثار.

إذن لابدّ من الطلب إلى هؤلاء في مكانهم هذا أن يتوجهوا بالدعاء إلى الله ليغفر ذنوبه ويرضى عنه.

واذا كان المال مطلبه في المقامات الاخرى، فمطلبه في هذه المقامة هو الدعاء، لاسيما انه قد بلغ من العمر ما انهك قواه واشعره بالندم:

« **أما الان وقد استشن الاديم وتأودّ القويم واستنار الليل البهيم، فليس الا الندم إن نفع، وترقيع الخرق الذي قد اتسع** ».

وهنا تهيمن (الكناية) في بث الدلالة فاستشن الأديم كناية عن الهرم لأن استشن بمعنى: بلي وخرق، واما قوله: استنار الليل البهيم فكناية عن الشيب الذي اشتعل في شعره الشديد السواد، وقد كنىّ عن التوبة بالترقيع للثوب الخرق علَّ في توبته هذه كفارة لما صنع.

وبعد ان يعترف بما حل في جسمه من مظاهر الوهن والشيخوخة يكشف عن قصديته من خطابه الذي خصّ به البصريين: «**وكنت رَوَّيت من الاخبار المُسندة والأثار المعتمدة أن لكم من الله تعالى في كل يوم نظرة، وان سلاح الناس كُلهم الحديد، وسلاحكم الادعية والتوحيد، فقصدتكم أُنضي الرّواحل، واطوي المراحل، حتى قمت هذا المقام لديكم، ولا منّ لي عليكم، إذ ما سعيت الا في حاجتي، ولا تعبت الا لراحتي، ولست ابغي أعطيتكم، بل استدعي ادعيتكم، ولا أسألكم اموالكم، بل استنزل سؤالكم، فأدعوا الله تعالى بتوفيقي للمتاب والاعداد للمآب،فإنه رفيع الدرجات، مجيب الدعوات، وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات** »

هنا تلتقي جمالية الشكل بثراء المضمون، فما أجمل قوله «أُنضي الرواحل» أي أهزل الابل بحثها على السير السريع ومع انه تحدث وكشف للبصرة وللبصريين الكثير من السمات الراقية، فهو لا يرى في ذلك فضلاً بل هم المتفضلون عليه لأنه صاحب حاجة

هي الوصول إلى هذا المكان لطلب الدعاء.

ويبدأ التفاعل مع صاحب الخطاب لتأسيس مظهر من مظاهر التداولية يقوم على التواصل وتفعيل دور العلاقة اللغوية في سياق استعمالها.

« **قال الراوي:**

فطفقت الجماعة تمدّهُ بالدعاء، وهو يقلب وجهه في السماء إلى ان دمعت أجفانه، وبدأ رجفانه، فصاح الله أكبر بانت أمارة الاستجابة، وانجابت غشاوة الاسترابة، فجزيتم يا أهل البُصيرة جزاء من هدى من الحيرة، فلم يبق من القوم الا من سرّ لسروره، ورضخ له بميسوره، فَقَبِلَ عفوَ بَرّهِم، واقبل يُهْرِفُ في شكرهم، ثم انحدر.....»

هذه النتيجة التي وقف عندها بطل المقامة تُمثل حوار الثقافة مع متلقيها، وهو حوار يستند إلى المصارحة والمكاشفة والابتعاد عن كل انواع الخدع والاقنعة.

لقد اعطى الحريري اللغة قيمة عالية في بناء أطر الثقافة،

وترسيخ اسسها، فاللغة هي سيدة الخطاب، وهي أداة الحوار التي تمتلك من الوسائل والامكانات ما يمكنها من استمالة المخاطبين وتحقيق القناعة لديهم.

ومن المعلوم انّ لأبي محمد القاسم بن علي بن محمد البصري الحريري براعة في العلم واللغة، وقد شهد بذلك الكثيرون من ذلك مثلا ما أشار اليه العماد الاصفهاني من أن الحريري « **قد أعجز الفصحاء بصناعته، وأبرّ البلغاء ببراعته...وقد أشتهرت له المقامات شرقاً وغرباً، و بعداً وقرباً** »(٣٦)

وقد قال الزمخشري في مقاماته:

أقسم بالله وأياته ومشعر الحجّ وميقاته
إن الحريريَّ حريٌّ بأن تكتب بالتبرِ مقاماته

وقد تجلت براعة الحريري في اللغة في كتبه التي أشهرها (درة الغواص في وهم الخواص) وكتاب (ملحة الاعراب) فضلا عن مقاماته التي ذاعت شهرته بها.

في ضوء ذلك يمكن القول: إن المقامة البصرية أنموذج ثقافي

تمثل مع غيرها من المقامات صرحاً ثقافيا شامخاً يوقفنا عند ابعاد معرفية تتجلى أهميتها بالتدّبر والتحليل، فهي – كما بينا –تعكس ثورة المثقفين ضد تردي الاوضاع التي عاشها الحريري، وهي ثورة تشعرنا بان للثقافة كرامة لا تجدها الا عندما تكون في أوساط المجتمع، وبين جمهورها الحقيقي الذي أنشئت أساساً لهم.

ان هذه الثقافة ستكون حتماً في المواجهة مع ثقافة السلطة التي لا شأن لها بالانسان لأنها ثقافة مخادعة ومنافقة غرضها إرضاء السلطان والحصول على المال، اما الثقافة الحقيقية فهي ثقافة متجددة تحاول تصحيح مساراتها لكي ترى نفسها دائماً على جادة الصواب، هذا هو شان بطل المقامات الذي قست الظروف معه فراح يجوب البلدان وينتقل بين الامكنة ليسمع صوت الثقافة البصرية لكنه يعود بعد ذلك العناء والكدّ والترحال...يعود إلى مدينته ليعترف هنا في البصرة بأخطائه، وليعلن في هذا المكان توبته.

هنا تبدو المفارقة واضحة بين أمكنة (الاغتراب) والمكان

(الهوية) فهناك الخداع و الكذب وطلب المال، وهنا اعلان التوبة وطلب الدعاء..«**ولست ابغي أعطيتكم بل أستدعي أدعيتكم، ولا اسألكم أموالكم، بل أستنزلُ سؤالكم**».

ثم أنشد:

أستغفرُ اللهَ من ذنوبٍ أفرْطتُ فيهُنّ وأعتديتُ
كم خُضْتُ بحرَ الضّلالِ جهلاً ورحت في الغيّ واعتديتُ
يا ربّ عفواً فأنتَ أهلٌ للعفوِ عنّي وان عَصَيْتُ

لا شك أنّ الاعتراف بالذنب فضيلة، والشعور بالندم فضيلة أخرى مكملة، وكلتاهما يشقّان طريقاً إلى التوبة، وقد حث القرآن الكريم على ذلك، وبين ما فيه من فضل عظيم.

قال تعالى:

﴿ **إلا منْ تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يَبُدّلُ اللهُ سيئاتهم حسنات** ﴾ (الفرقان: ٧٠)

في ضوء ذلك يمكن استيضاح البعد القيمي لحركة الانسان البصري بقراءة محاور الثالوث الثقافي في المقامة البصرية متمثلاً في

(البطل – الراوي – الجمهور).

فالبطل الذي يقف وجهاً لوجه امام جمهوره الحقيقي، وعلى تراب مدينته لا يجد مجالا لإخفاء شيء من ماضيه، لأنه بمكاشفته هذه سيتخذ مساراً إلى التوبة.

أما الراوي فقد كان قريباً من البطل لا يكاد يفارقه، فهو دائماً في الرصد والمراقبة حتى يتبين له صدق ما يقول وما يفعل لأن الماضي قد وضعه في شك، وذلك – على ما يبدو – مسلك علمي سليم للتثبيت من الحقائق يحاول الحارث بن همام أن يختطه للناس.

إن فهم الحقائق ليس بالامر اليسير، وانما يتطّلب متابعة جادة واستقراء وتحليلاً يكون الفهم والمفهوم مستندين إلى أدلة قاطعة.

والظاهر أن الجمهور كان على درجة عالية من الفهم والاستيعاب لخطاب البطل الثقافي، ولم يتدخل الراوي في توضيح الحقائق أو كشف المقاصد،بل كان البصريون على درجة من الثقافة والوعي مكنتهم من التفاعل مع ذلك الخطاب، فما أن

طلب أبو زيد السروجي منهم الدعاء حتى شرعوا برفع أيديهم بكل صدق وخشوع طالبين من الباري – عزّ وجلّ– أن يتقبل توبة البطل وأن يغفر له كل ما أرتكبه من أخطاء وذنوب.

لقد أحسّ السروجي بالطيبة البصرية ونقاء سريرة الانسان البصري وصدق إيمانه، فما ان طفقت الجماعة تمدّهُ بالدعاء حتى دمعت أجفانه وارتعدت أوصاله من الخشية وصاح:

الله اكبر، لقد بانت علامات الاستجابة، وانكشف غطاء الشك، وزال كلُّ ما يريب.

هنا يكون السروجي قد سُرّ لصنيع أهل البصرة الذين عرف عنهم حبّ فعل الخير، وكانت استجابة الدعاء قد مثلت انعطافة في حياة البطل نقلته من الغمّ والشقاء إلى السعادة والانفراج، وبالمقابل فإن البصريين قد سُرّوا لسرور صاحبهم وهذه صفة اخرى تحسب لهم وهي مشاطرة الإخوان في السراء والضراء وهي صفة غالبة على ما يفهم من المقامة.

« **فلم يبق من القوم إلاّ من سُرّ لسروره، ورضخ له بميسوره**».

هنا تتفتح الطيبة بجانبيها: (المعنوي والمادي)، فالسعادة التي غمرتهم كان مبعثها التحول الذي حصل في حياة السروجي إلى السير على جادة الايمان الصادق بما يُرضي الله تعالى، ولم يكتفوا بهذا الحدّ وانما راحوا يقدمون على الصعيد المادي ما في ميسورهم من المال وإن لم يُطلب منهم ذلك وقد تقبَّل السروجي عطاءهم ولم يرفضه إذ عد ذلك من باب قبول الاحسان وعدم ردّ الجميل.

لقد كان هذا التحول حقيقياً، والناس على يقين منه، لذا صاروا يسمونه بذي الكرامات بدلا من ذي المقامات، كذلك صار الراوي على يقين من ذلك بعد أن وجدهُ يقضي وقته بين قنوتٍ وخشوعٍ، وسجودٍ وركوعٍ، وكان خطابه له حين أحسّ بنهايته يؤكد ذلك اليقين فقد نعته بالعبد الناصح عندما قال له:

« **أوصني أيها العبد الناصح**»

وكان ردّ السروجي أن قال:

« **إجعل الموت نُصْبَ عينيك**»

وهذه موعظة عظيمة، لأن المؤمن الذي يتفكر بالموت، ويضعهُ

مقابل عينيه سيكون على الطريق القويم فلا يغفل أبداً، ولا يصدر عنه الا ما يليق وقد جعل الذكر الحكيم الموت أمنية للذين يريدون الآخرة وذلك في قوله تعالى:

﴿ **قُلْ إنْ كانتْ لكم الدارُ الاخرةُ عندَ اللهِ خالصةً مِنْ دونِ الناسِ فَتَمنّوا الموت إنْ كنتُمْ صادقين**﴾ (البقرة: ٩٤).

الخاتمة

من الواضح ان الحريري قد جسد في مقاماته سعة علمه وذكائه ومقدرته العالية في التعامل مع اللغة وإبراز جمالياتها في عبارات دقيقة واساليب أنّاذه وفنون بلاغية جاذبة، ولا عجب في هذا فهو شاعر مبدع واديب لامع ولغوي بارع كتبَ ملحة الاعراب في النحو وشرحها، وله كتاب درة الغواص في اوهام الخواص فضلا عما له من شعر ورسائل.

من أجل هذا فقد عد الدارسون الحريري مدرسة يمكن ان ينتفع بها طلاب العلم في كل عصر، وفي هذا قال محقق شرح المقامات للشريشي (أ. د. محمد عبد المنعم خفاجي) في مقدمته للكتاب:

(وللحريري ومقاماته أثر لا يُنسى، فقد كانت هي المدرسة الاولى التي يتعلم فيها الشباب الادب والكتابة واساليب البيان).

لقد كتب أبو محمد القاسم بن علي بن عثمان الحريري البصري

خمسين مقامة ذكر فيها الكثير من الأماكن والبلدان التي اتاح لبطله ابي زيد سروجي السفر اليها والتحدث الى اهلها.

ولما فرغ من المقامة الساسانية وهي المقامة التاسعة و الاربعون أبى أن يختم مقاماته من غير ان يخص بالذكر مدينته البصرة التي ولد فيها سنة ٤٤٦هـ، فجاءت المقامة الاخيرة الخمسون تحمل اسم البصرة ومعه كل حبه ووفائه واعتزازه بها من أجل ان يؤكد للملأ مكانتها التاريخية، وما أدته من ادوار علمية وحضارية، وما قدمته على طريق خدمة الانسانية.

لقد أدرك الكثيرون أهمية صنيع ذلك العالم البصري فعمدوا الى دراسة المقامات وشرحها، ولعل أحسن الشروح هو شرح أبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي (٦٢٠هـ).

ولم يقف الامر عند الدارسين العرب، بل عُني بها الغربيون وقد ترجمت الى أكثر من لغة، ففي سنة ١٨٤٤ م ترجمها (روكرت) الى اللغة النمساوية، وفي سنة ١٨٥٠م ترجمها بريستون الى اللغة الانجليزية، وهناك ترجمات أخر.

فضلا عن هذا فقد صدر للمقامات أكثر من طبعة، وما زال المعنيون باللغة والادب يعكفون على دراستها في العالمين: العربي والغربي.

ان استنطاق النص في أية مقامة من مقامات الحريري يضعنا أمام ثروة معرفية تمدّنا بثمار اللغة والفكر والأدب، وهذا الذي وجدناه في المقامة البصرية التي تمخضتْ عن قراءتها وتحليلها نتائج يلمسها القارئ في ثنايا هذه الموسوعة.

لقد أثنى الكاتب على مدينته (مكاناً وانساناً) ثناءً يدرك المطلعّ على التاريخ انها تستحقه وفي إطار ذلك الثناء راح يُعرّف بها من النواحي التاريخية والحضارية والفكرية والدينية واللغوية والادبية، ولهذا فالتعريف بالبصرة أحد اهداف هذه الموسوعة.

ان حركة بطل المقامات والراوي الذي يترصد تلك الحركة ويتابعها في تنقلاتها من مكان الى اخر تكشف عن مرحلتين:

الاولى: مرحلة الاثام وارتكاب الأخطاء.

والثانية: مرحلة التطهير.

وكأن الكاتب اراد أنْ يؤكد أنّ للمكان اسهاماً في بناء سلوك الانسان مثلما ان للمجتمع دوراً في صقل ذلك السلوك وتوجيهه والوجهة السليمة، وهذا في غاية الاهمية من الناحية التربوية، وهو واحد من نتائج هذه الدراسة.

هناك حقيقة أخرى مستقاة من المقامة البصرية سيلمسها قارئ هذه الموسوعة، هي أن التوبة والدعاء أمران متلازمان إذ لا بد لقبول الاولى من توجه خالص الى البارئ ﷻ، يضاف الى ذلك ان اعلان التوبة وطلب المغفرة والدعاء تقتضي ان يكون المكان الذي يتوجه منه العبد مكاناً مؤسَّساً على التقوى والفضيلة، ولا بد للداعي ان يكون من أهل الفضل والايمان لأن الدعاء مفتاح النجاة، فقد روي عن رسول الله ﷺ قوله:

«**أفضل العبادة الدعاء، وإذا أذن الله لعبدٍ في الدعاء فتح له أبواب الرحمة، إنه لن يهلك مع الدعاء أحد**».

من هنا كانت البصرة مكاناً للتوبة وكان أهلها محلاً للدعاء، عندها أدرك بطل المقامات ان وجوده في مدينته، ووقوفه بين

أهلها يعني إن مرحلة طويلة من العناء والشقاء قد انتهت، وان مرحلة جديدة بدأت، وقد تزين فيها بالتقوى والخضوع الكلي لله الواحد الاحد.

لقد أحس السروجي بسعادة غامرة وهو يرى أبناء مدينته يستجيبون لندائه،ويرفعون أيديهم للدعاء له بالمغفرة وقبول التوبة،ولعل ملاحظتهم وهم يتضرعون بإخلاص هي التي جعلته متيقناً من تحقق الاستجابة، كذلك حصل التيقن عند الراوي وهو يرى إن ايمان السروجي لم يكن ادعاءً ولا رياءً أراد به ان يخدع الناس كما فعل في كثير من الامكنة التي حلّ بها..،انه اليوم يراه يخشع في خلوته خشوع الصادقين، وهذه أيضاً نتيجة مهمة لهذه الدراسة وهي ضرورة إخلاص العبادة وعدم الرياء، لأن الايمان الحقيقي هو ما وقر في القلب وصدقه العمل.

ان مرحلة التطهير التي انتهى اليها بطل المقامات تُعدّ رسالة لكل انسان بأن يعيد النظر في ماضيه وسلوكه ليسير في الطريق الصحيح فيكسب رضا الله ويعيش في الدنيا مطمئناً ويخرج منها وهو مطمئن.

الهوامش

١- لسان العرب لأبن منظور، (مادة: قوم)

٢- ينظر: البصرة في العصر العباسي الاخير، ١٠٧ وما بعدها وينظر: مع الحريري في مقاماته، ٢٩ و ٣٠

٣- ينظر: سفرنامة، ١٠٥

٤- ينظر: البصرة في العصر العباسي الاخير، ١١٣

٥- من المقامة التبريزية، وهي المقامة الاربعون (ينظر شرح مقامات الحريري للشريشي)

٦- من المقامة الفرضية، وهي المقامة الخامسة عشرة (ينظر شرح مقامات الحريري للشريشي)

٧- ينظر: من الحياة الفكرية في البصرة،١٥٠

٨- ذكرت ذلك كتب كثيرة منها على سبيل المثال: الانتصار للشريف المرتضى،١٩٩

٩- ينظر: عيون الاخبار لابن قتيبة، ١ :٤٧

(وقد ذكر ذلك ياقوت الحموي في معجم البلدان، ١: ٣٤٤)

١٠- ينظر: بحار الانوار للمجلسي، ٤١: ٣٢ و ٣٣

١١- كل ما سيرد من النصوص من المقامة البصرية، كذلك بعض التوضيحات اعتمدنا فيها على كتاب (شرح مقامات الحريري للشريشي) و (مقامات الحريري الصادر عن دار إحياء التراث العربي)

١٢- ينظر:في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، ١٤٤

١٣- ينظر: بنية النص السردي من منظور النقد الادبي، ٤٥

١٤- ينظر: المرجع نفسه، ٤٦

١٥- نفسه،٤٧

١٦- ينظر:فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، ١١٠ و١١١

١٧- ينظر:معجم البلدان، ١: ٣٤٤

١٨- شرح مقامات الحريري، للشريشي،(المقدمة)

١٩- لسان العرب،(مادة: وفى)

٢٠.- ٢١: ينظر: الميزان في تفسير القرآن للطبرسي، ١:٤٧

٢٢ ينظر: معجم البلدان،١: ٣٤٦

٢٣- ينظر: المصدر نفسه،١ :٣٤٧

٢٤- نفسه، ١ :٣٤٧

٢٥- ذكر ذلك عبد الله بن عيسى النجدي (ت ١٢٤٧ هـ) نقلاً عن صاحب كتاب (الدرة المضّية في عجائب البرية) (ينظر: تاريخ مدينة البصرة لعبد الله النجدي، ٥٢)

٢٦- معجم البلدان، ١: ٣٤٦

٢٧- نفسه ١ :٣٤٦

٢٨- نفسه ١: ٣٤٦

٢٩- رحلة ابن بطوطة، ١: ٢٠٧

٣٠- لسان العرب، (مادة: وعى)

٣١- شرح نهج البلاغة لأبن ابي الحديد، ١ :٢٥٢

٣٢- المسترشد، ١٠١

٣٣- في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، ٢٩٦

٣٤- نهج البلاغة للشريف الرضي، ١: ٤٤ و٤٥

٣٥- المصدر نفسه، ١٩٦:١ و١٩٧

٣٦- خريدة القصر وجريدة العصر، (٤-٢ / ٥٩٩) وما بعدها.

قائمة المصادر والمراجع:

- الانتصار، الشريف المرتضى، مؤسسة النشر الإسلامي، قم / ١٤١٥ هـ

- بحار الانوار، المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت / ١٩٨٣ م

- البصرة في العصر العباسي الاخير، د.محمد كريم إبراهيم، (بحث منشور ضمن موسوعة البصرة الحضارية، الموسوعة التاريخية، جامعة البصرة، المركز الثقافي / ١٩٨٩ م)

- بنية النص السردي من منظور النقد الادبي، د. أحمد الحميداني، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الدار البيضاء في المغرب، ط٣ / ٢٠٠٠ م

- تاريخ مدينة البصرة، عبد الله بن عيسى بن إسماعيل النجدي، تح: د.فاخر جبر، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط ١ / ٢٠١٠ م.

- خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الاصفهان، تح: محمد

بهجت الاثري، ١٩٧٢ م

- رحلة ابن بطوطة، ابو عبد الله محمد بن عبد الله، المكتبة التجارية، مصر / ١٩٣٨ م

- سفرنامة، ناصر خسرو، ترجمة: يحيى الخشاب، الهيأة المصرية العامة للكتاب، ط٢ / ١٩٩٣ م

- شرح مقامات الحريري البصري، أبو العباس أحمد الشريشي، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، طبع ونشر عبد الحميد أحمد حنفي، مصر، ط ١ / ١٩٥٣ م

- شرح نهج البلاغة، إبن ابي الحديد، تح: محمد ابو الفضل ابراهيم، دار الجيل، بيروت، ط ١ / ١٩٨٧ م

- عيون الاخبار، ابن قتيبة، تح: محمد الاسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٥ / ٢٠٠٢ م

- فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميّز الخطاب، د. يحيى العيد، دار الآداب، بيروت،ط ١ / ١٩٩٨ م

- في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، د. عبد الملك مرتاض، (سلسلة عالم المعرفة (٢٤٠) - الكويت، ديسمبر /

كانون الاول / ١٩٩٨ م

- لسان العرب، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١ هـ (، دار صادر،بيروت (د. ت)

- المسترشد في امامة أمير المؤمنين ﷺ، ابن جرير الطبري، تح: أحمد المحمودي، مطبعة سلمان الفارسي، قم، ط ١ / ١٤١٥ هـ

- معجم البلدان، ياقوت الحموي، تح: وستنفلد، لايبزج / ١٨٦٨ م

- مقامات الحريري المسماة بالمقامة الادبية، اصدار دار احياء التراث العربي، بيروت، ط ٣ (د. ت)

- من الحياة الفكرية في البصرة، د. عبد الجبار ناجي (بحث منشور في موسوعة البصرة الحضارية - الموسوعة التاريخية، جامعة البصرة، المركز الثقافي / ١٩٨٩ م)

- الميزان في تفسير القران، محمد حسين الطباطبائي،مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت،ط ١ -١٩٩٧

- نهج البلاغة للشريف الرضي، شرح محمد عبده، دار المعرفة، بيروت (د. ت)

فهرس المحتويات

المقدمة	٥-٨
أولا: المكان البصري	٩-٥٦
جامع البصرة (المكان الصغير).	١٦-٣٧
المكان الاكبر (البصرة)	٣٢-٥٦
الوظيفة الدينية	٣٧-٤٨
الوظيفة الإنتاجية	٤٨-٥٦
ثانيا: الانسان البصري	٥٧-٩٤
مراحل الحديث عن الإنسان البصري	٦٣-٩٤
المرحلة الأولى	٦٤-٦٦
المرحلة الثانية	٦٦-٧٥
المرحلة الثالثة	٧٥-٨٠
المرحلة الرابعة	٨٠-٩٤
الخاتمة	٩٥-٩٩
الهوامش	١٠١-١٠٤
قائمة المصادر والمراجع	١٠٥-١٠٧
فهرس المحتويات	١٠٩